ثلاثون مجلسًا في التدبر

مجالس علمية وإيمانية

المجموعة الثالثة

إعداد اللجنة العلمية في مركز تدبر



مركز تدبر للدراسات والاستشارات

ثلاثون مجلساً في التدبر

مجالس علمية وإيمانية

المجموعة الثالثة

الطبعة الأولى

١٤٣٥هـ - ٢٠١٤

الرياض ـ الدائري الشرقي ـ مخرج ١٥

هاتف ٠١١٢٥٤٩٩٩٣ ـ تحويلة ٣٣٣

ناسوخ ٠١١٢٥٤٩٩٩٦

ص.ب.٩٣٤٠٤ الرمز: ١١٦٨٤

البريد الحاسوبي: tadabbor@tadabbor.com

www.tadabbor.com

....

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

مركز تدبر للاستشارات التربوية والتعليمة

ثلاثون مجلسا في التدبر (المجموعة الثالثة).

مركز تدبر للاستشارات التربوية والتعليمية - الرياض، ١٤٣٥هـ

١٢٨ ص؛ ١٧ × ٢٢سم

ردمك: ٩-٤-٩٠٣٦٤-٦٠٣-٩٧٨

١- القرآن - مباحث عامة ٢- القرآن - التفسير الحديث أ. العنوان

ديوي ٢٢٧،٦ ١٤٣٥/ ٥٤٥٥

رقم الإبداع: ١٤٣٥/ ٥٤٥٥

ردمك: ٩-٤-٩٠٣٦٤-٦٠٣-٩٧٨


بسم الله الرحمن الرحيم


ثلاثون مجلساً في التدبر
مجالس علمية وإيمانية



مقدمة النشر

الحمد لله الذي أكرم من شاء من عباده بذكره، وجعل تلاوة كتابه ومدارسته من أسباب رحمته وتنـزّل سكينته وملائكته المسبحة بقدسه، وصلى الله وسلّم وبارك على إمام المتدارسين لمعاني كلام رب العالمين، وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

فهذا هو الجزء الثالث من هذه السلسلة «**ثلاثون مجلساً في التدبر**» نقدّمه لأهل القرآن، لينضم إلى ما سبقه من أجزاء؛ عسى أن يكون معيناً على تحقيق رؤيتنا ورسالتنا في هذا المشروع «**تدبر**».

وإن مما لا يخفى على القارئ اللبيب أن تنوّع مشارب العلماء والباحثين الذي ساهموا في بناء هذا الكتاب، وتفاوتهم في العلم -وفي كلٍّ خير-، سيسهم بالضرورة في وجود تفاوت في الأسلوب، والطريقة التي يوصلون

بها المعاني، لكنها في الجملة تحقق الحدّ الأدنى مما نرجوه من إصدار هذه السلسلة، وفوق كل ذي علم عليم.

وصلى الله وسلّم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

نسعد بملحوظاتكم وتسديداتكم على: tadabbor@tadabbor.com

وكتب/ عمر بن عبدالله المقبل

رئيس مجلس إدارة الهيئة العالمية لتدبر القرآن الكريم

وعضو هيئة التدريس بجامعة القصيم

١٥/ ٦/ ١٤٣٥هـ



المجلس الأول

آية الكمال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾[1]

في هذا المجلس المبارك نتدارس آية عظيمة في كتاب الله جمعت معاني ومقاصد القرآن كله، وهي قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ (الفاتحة:٥)؛ ولذلك تسمى آية الكمال، وفي ذلك يقول الشاعر:

فاسجُدْ لهيبةِ الجَلالِ عنْد التَّدَانِي

وَلْتَقْرَأ آيةَ الكَمالِ سَبْعَ المَثَانِي

ومن تأمل هذه الآية، وجدها عماد السورة، وإليها يرجع مضمونها كلها؛ إذ أنها واردة لغرض عظيم وهو تقرير استحقاقه تعالى واختصاصه بالعبودية والاستعانة، وقد تواترت أقوال العلماء في فضلها، من ذلك:

قول شيخ الإسلام ابن تيمية: «﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ هاتان الكلمتان تجمعان معاني الكتب المنزلة من السماء»[2].

---

(١) كتبه: د. محمد بن عبدالله الربيعة، عضو هيئة التدريس بجامعة القصيم، وعضو الهيئة العالمية لتدبر القرآن.

(٢) دقائق التفسير (١/ ٢١٢).



وقال ابن كثير: «قال بعض السلف: الفاتحة سر القرآن، وسرها هذه الكلمة ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾»[1].

وقال ابن القيم: «وسر الخلق والأمر والكتب والشرائع والثواب والعقاب انتهى إلى هاتين الكلمتين، وعليهما مدار العبودية والتوحيد»[2].

وهذه الآية هي موضوع الرُّقيَة وسرها في الفاتحة كما قال ابن القيم: «وقد قيل: إن موضع الرُّقيَة منها: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، ولا ريب أن هاتين الكلمتين من أقوى أجزاء هذا الدواء؛ فإن فيهما من عموم التفويض والتوكل والالتجاء والاستعانة والافتقار والطلب والجمع بين أعلى الغايات وهي عبادة الرب وحده، وأشرف الوسائل وهي الاستعانة به على عبادته ما ليس في غيرها، ولقد مر بي وقت بمكة سقمت فيه وفقدت الطبيب والدواء، فكنت أتعالج بها آخذ شربة من ماء زمزم وأقرؤها عليها مرارا، ثم أشربه فوجدت بذلك البرء التام، ثم صرت أعتمد ذلك عند كثير من الأوجاع، فأنتفع بها غاية الإنتفاع»[3].

---

(١) تفسير القرآن العظيم (١/ ١٣٤).
(٢) مدارج الساكين (١/ ٩٥).
(٣) زاد المعاد (٤/ ١٦٤).

ومن هدايات هذه الآية العظيمة:

أنها جاءت بعد ذكر اتصافه تعالى بصفات الجلال والكمال في الآيات الثلاث الأولى؛ فكان ذلك موجبًا لاستحقاقه واختصاصه بالعبادة والاستعانة، وفي ذلك إشارة إلى أن طريق تحقيق كمال عبوديته هو تحقيق معرفته تعالى ومعرفة وجوه كماله؛ وذلك لأنه من كان بالله أعرف كان له أخوف وأتقى.

وقوله: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾ ولم يقل (نعبدك)؛ «للدلالة على الحصر والاختصاص، وهو أن العبادة لا تكون إلا لله فكأنه قال: لا نعبد إلا إياك، ولا نستعين إلا بك»[1].

تخصيص العبادة دون غيرها في السورة في غاية المناسبة؛ وذلك أن السورة جامعة لمعاني ومقاصد القرآن كله فجاء بلفظ العبودية الجامعة لأنواع العبادة كلها، فتضمنت هذه الكلمة جماع الدين كله.

ذكر الاستعانة مع أنها نوع من أنواع العبادة للدلالة على أنه لا سبيل للعبد لتحقيق عبودية الله إلا بعونه، كما في الحديث «**اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك**»[2]، وأيضًا فإن تحقيق العبادة سبب لكمال المعونة، قال ابن القيم: «كلما كان العبد أتم عبودية، كانت الإعانة من الله له أعظم»[3].

---

(١) بدائع التفسير (١/ ١٧٩).

(٢) أبو داود ح(١٥٢٢)، أحمد (٢٢١١٩)، النسائي (٩٨٥٧)، الحاكم (٥١٩٤).

(٣) بدائع التفسير (١/ ١٧٨).

جاء ذكر العبادة والاستعانة بلفظ الجماعة ﴿نَعۡبُدُ﴾ و﴿نَسۡتَعِينُ﴾ ليكون أكمل في الاعتراف وأبلغ في الثناء وأرجى للقبول والبركة والإجابة.

هذا فيض من غيض من معاني وهدايات هذه الآية العظيمة، نسأل الله تعالى أن يجعلنا ممن تمثلها وحقق معانيها وكمل حقوقها.



المجلس الثاني

علوم سورة البقرة (١)

إن سورة البقرة من أعظم سور القرآن، وقد ورد في فضلها أحاديث صحيحة، فهلا تأملنا في شيء من أسرار تفضيلها؟

لنستمع لكلام إمامٍ تدبرها، ولخّص أبرز موضوعاتها، وهو شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله إذ يقول: قد اشتملت سورة البقرة على تقرير أصول العلم وقواعد الدين؛ فقد افتتحها الله تعالى بذكر كتابه الهادي للمتقين، فوصف حال أهل الهدى، ثم الكافرين ثم المنافقين، فهذه «جمل خبرية».

ثم ذكر «الجمل الطلبية» فدعا الناس إلى عبادته وحده.

ثم ذكر الدلائل على ذلك من فرش الأرض، وبناء السماء، وإنزال الماء، وإخراج الثمار رزقا للعباد، ثم قرر «الرسالة»، وذكر «الوعد والوعيد».

ثم ذكر مبدأ «النبوة والهدى» وما بثه في العالم من الخلق والأمر، ثم ذكر تعليم آدم الأسماء، وإسجاد الملائكة له؛ لما شرفه من العلم، ثم انتقل إلى

(١) ملخصًا من كلام شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله، ينظر: مجموع الفتاوى (١٤/ ٤١- ٥٠).

خطاب بني إسرائيل وقصة موسى معهم وضمن ذلك تقرير نبوته -إذ هو قرين محمد - فذكر آدم الذي هو أول، وموسى الذي هو نظيره.

وكان في قصة موسى رد على أهل الكتاب؛ بما تضمنه ذلك من الأمر بالإيمان بما جاء به محمد ﷺ وتقرير نبوته، وذكر حال من عدل عن النبوة إلى السحر، وذِكْرِ النسخ، والنصارى، وأن الأمتين -اليهودية والنصرانية- لن يرضوا عنه حتى يتبع ملتهم.

كل هذا في تقرير أصول الدين من الوحدانية والرسالة.

ثم أخذ سبحانه في بيان شرائع الإسلام التي على ملة إبراهيم:

فذكر إبراهيم -الذي هو إمام- وبناءَ البيت -الذي بتعظيمه يتميز أهل الإسلام عما سواهم- وذكر استقباله وقرّر ذلك؛ فإنه شعار الملة بين أهلها وغيرهم.

وذكر من «المناسك» ما يختص بالمكان؛ وذلك أن الحج له مكان وزمان و«العمرة» لها مكان فقط، والعكوفَ والركوعَ والسجودَ شُرِعَ في المسجد الحرام، ولا يتقيد به ولا بمكان ولا بزمان؛ لكن الصلاة تتقيد باستقباله فذكر سبحانه هذه الأنواع الخمسة: من العكوف والصلاة والطواف والعمرة والحج، والطوافُ يختص بالمكان فقط.

وذكر الصبرَ على المشروع والمقدور، وبيّن ما أنعم به على هذه الأمة من البشرى للصابرين، فإنها أعطيت ما لم تعط الأمم قبلها فكان ذلك من خصائصها وشعائرها.

ثم ذكر الحلال والحرام وأطلق الأمر في المطاعم؛ لأن الرسول بعث بالحنيفية وشعارها وهو البيت، وذكر سماحتها في الأحوال المباحة، وفي الدماء بما شرعه من القصاص، ومن أخذ الدية.

ثم ذكر العبادات المتعلقة بالزمان: فذكر الوصية المتعلقة بالموت، ثم الصيام المتعلق برمضان، وما يتصلُ به من الاعتكافِ ذكرَه في عبادات المكان وعبادات الزمان، ووسّطَهُ أولًا بين الطواف والصلاة؛ لأن الطواف يختص بالمسجد الحرام، والصلاةُ تشرع في جميع الأرض والعكوف بينهما.

ثم أتبع ذلك بالنهي عن أكل الأموال بالباطل وأخبر أن المحرم «نوعان»: نوعٌ لعينه: كالميتة، ونوع لكسبه: كالربا والمغصوب.

ثم ذكر في أثناء عبادات الزمان المنتقلِ الحرامَ المنتقلَ؛ ولهذا أتبعه بقوله: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ﴾ الآية (البقرة:١٨٩) وهي أعلام العبادات الزمنية، وأخبر أنه جعلها مواقيت للناس في أمر دينهم ودنياهم وللحج.

فتدبر تناسبَ القرآن وارتباطَ بعضِه ببعض، وكيف ذكر أحكام الحج فيها في موضعين: مع ذكر بيته وما يتعلق بمكانه، وموضع ذكر فيه الأهلة فذكر ما يتعلق بزمانه وذكر أيضا القتال في المسجد الحرام والمقاصة في الشهر الحرام؛ لأن ذلك مما يتعلق بالزمان المتعلق بالمكان؛ ولهذا قرن سبحانه ذكر كون الأهلة مواقيت للناس والحج.

ثم ذكر بعد ذلك ما يتعلق بأحكام النكاح والوالدات وما يتعلق بالأموال والصدقات والربا والديون وغير ذلك، ثم ختمها بالدعاء العظيم المتضمن وضع الآصار والأغلال والعفو والمغفرة والرحمة، وطلبَ النصرِ على القوم الكافرين -الذين هم أعداء ما شرعه من الدين في كتابه المبين-.



المجلس الثالث

﴿وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلۡخَٰشِعِينَ﴾(١)

الصلاة فريضة عظيمة كبيرة كما وصفها الله في قوله: ﴿وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلۡخَٰشِعِينَ﴾(البقرة:٤٥)، ولما كانت الصلاة أعظم أركان الإسلام بعد الشهادتين، وجب على المسلم أن يعيد حساباته كلها مع هذه الفريضة من الآن، وأن يعيد لها اعتبارها، وأولويتها في حياته كلها.

ونحن اليوم نشهد تهاونًا في أداء الصلاة مع الجماعة؛ مما يستدعي من المربين والدعاة الصادقين تكثيف الدعوة والتحذير من التهاون في فريضة الصلاة.

إن الصلاة هي أوجب الواجبات بعد الإيمان وهي أفضل الأعمال وآكدها، وهي أكثر العبادات تكررًا في حياة المسلم، وملازمة له في اليوم

---

(١) كتبه: د. عبدالرحمن بن معاضة الشهري، أستاذ القرآن وعلومه المشارك بجامعة الملك سعود، عضو الهيئة العالمية لتدبر القرآن الكريم، ومدير عام مركز تفسير للدراسات القرآنية.

خمس مرات؛ ولذلك جعلت مقياسًا للإيمان، وهي أساس أركان الإسلام؛ ولذلك يمكننا القول إن من لا صلاة له فلا دين له.

ومما يؤكد مكانة الصلاة في الإسلام أن الكفار وهم يعذبون في نار جهنم -والعياذ بالله- عندما سألوا عن سبب دخولهم النار أجابوا بأنهم لم يكونوا من المصلين، مع كونهم لم يكونوا مسلمين في أصلهم. قال تعالى: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ﴾ (المدثر: ٤٢-٤٣) وفي هذا إشارة منهم إلى أنه وإن كان الشرك بالله والكفر به هو أعظم الكبائر فقد تأخر ذكره في الآيات، وقُدِّم تضييع الأعمال الصالحة في الدنيا وعلى رأسها الصلاة، ولذلك قال هؤلاء الكفار المعذبون قولتهم هذه؛ وكأنهم وجدوا أن الذين نجاهم الله من العذاب إنما نجوا بسبب صبرهم على الصلاة وبما تتطلبه من الأعمال، ثم وجدوا أن طائفة من عصاة المسلمين وفجارهم قد ألقي بهم معهم في قعر جهنم وعذابها بسبب تهاونهم وتركهم للصلاة، فلم ينجهم إيمانٌ بلا عمل من عذاب الله.

ومما يؤكد أهمية المحافظة على الصلاة: أن الله لما ذم الإنسان وتوعده بما فيه من هلعٍ استثنى طائفة من الناس جعلهم بمنجاة من عذاب الله. وأوضح

العلة التي تسببت في نجاتهم وهي أنهم كانوا من المصلين المحافظين على صلاتهم والخاشعين فيها، فقال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ١٩ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعٗا ٢٠ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلۡخَيۡرُ مَنُوعًا ٢١ إِلَّا ٱلۡمُصَلِّينَ ٢٢ ٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ دَآئِمُونَ ٢٣ وَٱلَّذِينَ فِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ مَّعۡلُومٞ ٢٤ لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ ٢٥ وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوۡمِ ٱلدِّينِ ٢٦ وَٱلَّذِينَ هُم مِّنۡ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشۡفِقُونَ ٢٧ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمۡ غَيۡرُ مَأۡمُونٖ ٢٨ وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِفُرُوجِهِمۡ حَٰفِظُونَ ٢٩ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ فَإِنَّهُمۡ غَيۡرُ مَلُومِينَ ٣٠ فَمَنِ ٱبۡتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡعَادُونَ ٣١ وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِأَمَٰنَٰتِهِمۡ وَعَهۡدِهِمۡ رَٰعُونَ ٣٢ وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَٰدَٰتِهِمۡ قَآئِمُونَ ٣٣ وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ يُحَافِظُونَ﴾ (المعارج:١٩-٣٤).

إن هذه الأوصاف كلها إنما هي نابعةٌ من كونهم مؤمنين مصلين، فتأمل هذا أيها المسلمُ، وتفكر في هذه الصفات التي وصف الله بها عباده المؤمنين؛ حيث إن الصلاة هي التي تصنع فيهم كل هذه الصفات الحميدة ثم تحفظها وتنميها، والعجيب أن أول وصفٍ وصفوا به هو أنهم ﴿ٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ دَآئِمُونَ﴾، وآخر وصفٍ وصفوا به هو ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ يُحَافِظُونَ﴾؛ وذلك -والله أعلم- لجعل الأعمال الصالحة كلها مراقبة بميزان الصلاة، وذلك هو الذي يضمن لها البقاء والثبات، فلا صلاح للإنسان بغير صلاة ابتداءً وانتهاءً.

وقد قرر الله أن إقامة الدين في الأرض، وما تتطلبه من دعوة وجهاد إنما غايته الأساسية هي إقامة الصلاة، وما يلحقها من أعمال الإسلام. قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ (الحج:٤١) ووصف أمة محمد ﷺ بكونها صاحبة الشهادة على الناس، وجعل مناط تلك الشهاد إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة فقال تعالى: ﴿وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ۚ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ﴾(الحج:٧٨).

ولو شئت أن أتلو الآيات التي تحدثت عن الصلاة في القرآن الكريم لأتيت لكم بالقرآن كله، فماذا بقي للإنسان من دينه إذا هو ضيَّع الصلاة؟



المجلس الرابع

﴿قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ﴾[1]

إنها كلمة عظيمة ومن أجَلّ الأذكار التي تقال عند المصائب، ويبشر الله أهلها بالثناء عليهم منه سبحانه وبالرحمة، وحصول الهداية لهم، وذلك بعد ذكره سبحانه لحتمية البلاء في قوله تعالى: ﴿وَلَنَبۡلُوَنَّكُم بِشَيۡءٖ مِّنَ ٱلۡخَوۡفِ وَٱلۡجُوعِ وَنَقۡصٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٥٥ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ١٥٦ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ﴾. (البقرة:١٥٥-١٥٧)

فالإنسان حين تقع المصيبة ويشعر بلظى البلاء قي قلبه، ربما تساءل: لماذا أصابني البلاء دون غيري؟

فيأتي هذا الذكر القرآني العظيم مبتدأ بهذا الكلمة ﴿إِنَّا﴾، يردده المؤمن فيتقين أنه مملوك لله ﴿إِنَّا لِلَّهِ﴾، كما يفيد هذا التقديم حصر الملك له سبحانه؛ بكل ما تحمله هذه الكلمة من معنى الملكية المطلقة.

---

(١) كتبه: سلمان بن عمر السنيدي، مؤلف كتاب: تدبر القرآن.

والإنسان بفطرته لا يلوم صاحب الملك إذا تصرف في ملكه؛ لأنه أولى به وأعلم بشأنه وأحكم في تدبير شؤونه، وهكذا المسلم الصابر حين يردد ﴿إِنَّا لِلَّهِ﴾، يقع في نفسه تفويض أمره إلى ربه ومالكه وخالقه؛ فيستحي أن ينازع الله في ملكه، فيصبر بل ويرضى فيترقى في أعلى مقامات أعمال القلوب (الرضا بالقضاء).

وكذلك يستشعر المسلم أن سلطانه وجاهه وكل ما يفتخر به، تحت قهر الله وسلطانه وتدبيره، فهو حين يقول: ﴿إِنَّا لِلَّهِ﴾ بحق تسكن نفسه ببرد الرضا بالقضاء، ويحول بينها وبين التسخط عند نزول المصائب، ويمنع عنها الجزع عند زوال النعم.

فإذا كنا لله ملكا وتدبيرا، فليس لنا اعتراض على قدر الله وتدبيره، فهو سبحانه ﴿مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ﴾ (آل عمران: ٢٦) ﴿لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ (البقرة: ٢٥٥).

ومن ثمرات تذكر المسلم كونه ملكاً لله: أن يكون طائعًا له سبحانه ملتزمًا بأمره، في الشدة والرخاء، والأمن والخوف، متوجهًا لما يحب الله معرضًا عما يكرهه؛ رجاء ما عنده، وخوف عقابه يوم لقائه، ومما يؤكد هذا المعنى: ما جاء في آخر هذا الذكر المبارك في قوله: ﴿وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾.

وعند وقوع المصيبة وحلول البلاء يردد المؤمن أنه راجع إلى الله، فيزداد تعلقه بالله وانقياده له ويتيقن أنه عائدٌ إلى ربه؛ فيخاف من تقصيره ومعاصيه، ويطمع فيما عند الله من ثوابه وعفوه وإحسانه وما أعده الله للصابرين، ويرجو من الله أن ما فقده، سيعود عليه أجرًا وثوابًا وتكفيرًا وطهورًا -إن صبرَ واحتسب-، فتنقلب المحنة في حقه منحة.

إن رجوع المؤمن إلى الله في الدار الآخرة فوزٌ وراحةٌ من عناء الدنيا ونكدها، كما ورد أن رسول الله ﷺ مر عليه بجنازة، فقال: «**مستريح ومستراح منه**»، قالوا: يا رسول الله، ما المستريح والمستراح منه؟ فقال: «**العبد المؤمن يستريح من نصب الدنيا...**»[1]؛ وذلك لما يرى من الروح والريحان والنعيم في الجنان ولقاء الرحمن.

ولما يحمله هذا الذكر من المعاني العظيمة؛ كان له فضلٌ عظيمٌ جاء ذكره فيما الأحاديث التالية:

عن أم سلمة رضي الله عنها قالت: سمعت رسول ﷺ يقول: «**ما من مسلم تصيبه مصيبة، فيقول ما أمره الله: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾، اللهم أجرني في مصيبتي، وأخلف لي خيرا منها، إلا أخلف الله له خيرا منها**»، قالت: فلما مات أبو سلمة، قلت: أي المسلمين خير من أبي سلمة؟ أول بيت هاجر إلى رسول الله ﷺ، ثم إني قلتها، فأخلف الله لي رسول الله ﷺ.[2]

(١) رواه مسلم (٩٥٠).
(٢) رواه مسلم (٩١٨).

وعن أبي موسى أن رسول الله ﷺ قال: «**إذا مات ولد العبد، قال الله تعالى لملائكته: قبضتم ولد عبدي؟ فيقولون: نعم. فيقول: قبضتم ثمرة فؤاده؟ فيقولون: نعم. فيقول: ماذا قال عبدي؟ فيقولون: حمدك، واسترجع. فيقول: ابنوا لعبدي بيتا في الجنة، وسموه بيت الحمد**».[1]

(١) رواه الترمذي (١٠٢١).



المجلس الخامس

من فقه الأمثال القرآنية[1]

دعا الله تعالى عباده لتدبر الأمثال القرآنية، وأخبر أن من فقهها فهو من أهل العلم، فقال: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَـٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَـٰلِمُونَ﴾(العنكبوت: ٤٣).

من الأمثال القرآنية العجيبة التي توقف عندها العلماء كثيرًا: قوله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّا۟ئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَـٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾(البقرة:٢٦١).

يقول ابن القيّم: مبينًا معنى هذا المثل:

فشبّه سبحانه نفقة المنفق في سبيله، سواء كان المراد به الجهاد، أو جميعُ سبل الخير من كل بِر، بمن بذر بذرًا فأنبتتْ كل حبة سبعَ سنابل، اشتملت كل سنبلة على مائة حبة، والله يضاعف -بحسب حال المنفق، وإيمانه وإخلاصه، وإحسانه ونفع نفقته، وقدرها ووقوعها موقعها-.

(١) ملخصًا من كلام ابن القيم رحمه الله: في إعلام الموقعين (١/ ١٤١).

فإن ثواب الإنفاق يتفاوت بحسب ما يقوم بالقلب من الإيمان والإخلاص، والتثبّتِ عند النفقة، وهو إخراج المال بقلب ثابت، قد انشرح صدره بإخراجه، وسمحت به نفسه، وخرج من قلبه قبل خروجه من يده، فهو ثابت القلب عند إخراجه غير جزع ولا هلع، ولا متبعه نفسه ترجف يده وفؤاده.

ويتفاوت بحسب نفع الإنفاق ومصارفه بمواقعه.

ويتفاوت بحسب طيب المُنْفَقِ وزكائه.

وتحت هذا المثل من الفقه: أنه سبحانه شبّه الإنفاق بالبذر، فالمنفِقُ مالُه الطيب لله لا لغيره، باذر مالَه في أرضٍ زكية، فمَغَلُّه بحسب بذره، وطيبِ أرضه، وتعاهد البذر بالسقي، ونفي الدغل والنبات الغريب عنه.

فإذا اجتمعت هذه الأمور، ولم تحرق الزرع نارٌ ولا لحقته جائحة؛ جاء أمثال الجبال، وكان مثله كمثل حبة بربوة (وهي المكان المرتفع الذي تكون الجنة فيه نصب الشمس والرياح) فتتربى الأشجار هناك أتمّ تربية، فنزل عليها من السماء مطر عظيم القطر، متتابع، فرواها ونمّاها، فآتت أكلها ضعفي ما يؤتيه غيرها؛ بسبب ذلك الوابل، فإن لم يصبها وابل فطل (وهو مطرٌ صغير القطر) يكفيها لكرم منبتها، يزكو على الطل وينمي عليه، مع أن في ذكر نوعي الوابل والطل إشارة إلى نوعي الإنفاق الكثير والقليل.

فمن الناس من يكون إنفاقه وابلًا، ومنهم من يكون إنفاقه طلًّا، والله لا يضيع مثقال ذرة.

فإن عرض لهذا العامل ما يغرق أعماله، ويبطل حسناته، كان بمنزلة رجل له جنة من نخيل وأعناب، تجري من تحتها الأنهار، له فيها من كل الثمرات، وأصابه الكبر وله ذرية ضعفاء، فأصابها إعصار فيه نار فاحترقت، فإذا كان يوم استيفاء الأعمال، وإحراز الأجور، وجد هذا العامل عمله قد أصابه ما أصاب صاحب هذه الجنة، فحسرته حينئذ أشد من حسرة هذا على جنته!

فهذا مثل ضربه الله سبحانه في الحسرة لسلب النعمة عند شدة الحاجة إليها، مع عظم قدرها ومنفعتها، والذي ذهبت عنه قد أصابه الكبر والضعف فهو أحوج ما كان إلى نعمته، ومع هذا فله ذرية ضعفاء لا يقدرون على نفعه والقيام بمصالحه، بل هم في عياله فحاجته إلى نعمته حينئذ أشد ما كانت لضعفه وضعف ذريته، فكيف يكون حال هذا إذا كان له بستان عظيم، فيه من جميع الفواكه والثمر، وسلطان ثمره أجلّ الفواكه وأنفعها، وهو ثمر النخيل والأعناب، فمغله يقوم بكفايته وكفاية ذريته، فأصبح يومًا وقد وجده محترقًا كله كالصريم! فأي حسرة أعظم من حسرته؟ قال ابن عباس: «هذا مثل الذي يختم له بالفساد في آخر عمره».

وقال مجاهد: «هذا مثل المفرط في طاعة الله حتى يموت»، وقال السدي: «هذا مثل المرائي في نفقته الذي ينفق لغير الله، ينقطع عنه نفعها أحوج ما يكون إليه».

وسأل عمر بن الخطاب الصحابة يوما عن هذه الآية، فقالوا: «الله أعلم» فغضب عمر، وقال: «قولوا نعلم أو لا نعلم» فقال ابن عباس: «في نفسي منها شيء يا أمير المؤمنين» قال: «قل يا ابن أخي ولا تحقر نفسك» قال: «ضرب مثلا لعمل» قال: «لأي عمل؟ لرجل غني يعمل بالحسنات ثم بعث الله له الشيطان فعمل بالمعاصي حتى أغرق أعماله كلها».

قال الحسن: «هذا مثل قل والله من يعقله من الناس، شيخ كبير ضعف جسمه وكثر صبيانه أفقر ما كان إلى جنته، وإن أحدكم والله أفقر ما يكون إلى عمله إذا انقطعت عنه الدنيا».





المجلس السادس

﴿وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ﴾ [1]

من بدائع النظم القرآني ورود بعض الجُمل القصيرة، والتي يدخل تحتها معانٍ كثيرة جدًا.

ومن تلكم الجمل، والقواعد القرآنية العظيمة: قوله تعالى: ﴿وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ﴾ (آل عمران: ٣٦).

وهذه الآية جاءت في سياق قصة امرأة عمران التي قالت: ﴿رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّيٓ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾ (آل عمران: ٣٥، ٣٦).

في هذه الآية الكريمة بيان لحكمِ اللهِ القدري، والذي تفرّع عنه أحكام شرعية، هي عين الحكمة والرحمة.

---

(١) كتبه: د. عمر بن عبدالله المقبل، رئيس مجلس إدارة الهيئة العالمية لتدبر القرآن الكريم، الأستاذ المشارك بجامعة القصيم.

فقد راعت الشريعة في هذا الاختلاف طبيعة المرأة من حيث خلقتها، وتركيبها العقلي والنفسي، وغير ذلك من صور الاختلاف التي لا ينكرها العقلاء والمنصفون من أي دين.

والمتأمل يجد شيئًا من حِكَمِ الله تعالى في التفريق بين الذكر والأنثى في بعض الأحكام الشرعية، ومن ذلك:

١) التفريق في الميراث: فقد اقتضت سنة الله أن الرجل هو الذي يكدح ويتعب في تحصيل الرزق، ويطلب منه دفع الميراث، والمشاركة في دفع الدية؛ لذا كان من الحكمة أن يكون ميراثه أكثر، لأن الذكر مترقب دومًا للنقص من ماله، بعكس الأنثى فهي دومًا تترقب الزيادة في مالها: فهي التي يدفع لها المهر، وينفق عليها من قبل وليها.

٢) التفريق في الشهادة: كما نصت عليه آية الدين؛ لأن المرأة ليس من شأنها الاشتغال بالمعاملات المالية ونحوها، فلذلك تكون ذاكرتها فيها ضعيفة، بخلاف الأمور المنزلية -التي هي شغلها- فإنها فيها أقوى ذاكرة من الرجل.

ولا ينافي ذلك اشتغال بعض النساء الأجانب في هذا العصر بالأعمال المالية فإنه قليل لا يعول عليه، والأحكام العامة إنما تناط بالأكثر في الأشياء وبالأصل فيها[1].

(١) ينظر: تفسير المنار (٣/ ١٠٤).

وليس في هذا انتقاصٌ لقدرها، بل هو تنزيهٌ لها عن ترك مهمتها الأساسية في التربية والقرار في البيت، إلى مهمة أقل شأنًا وسموًا بالنسبة لها، وهي ممارسة التجارة والمعاملات المالية!

كما أن هذا التفريق بين الذكر والأنثى ليس كله للرجل، بل جاءت أحكام تفرق بينهما تفريقًا لصالح المرأة، ومن ذلك: أن الجهاد لا يجب على النساء لطبيعة أجسادهن، فسبحان العليم الحكيم الخبير، الذي حكم بأن الذكر ليس كالأنثى.

وبالجملة، فعلى المؤمن أن يحذر من كلمة راجت على كثير من الكتاب والمثقفين في حديثهم عن قضايا المرأة، فيطلقون كلمة «المساواة» التي لم ترد في القرآن بهذا المعنى الذي يورده أولئك الكتاب، والصواب أن يعبر عن ذلك بالعدل؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ﴾ (النحل: ٩٠)، ولم يقل: يأمر بالمساواة! لأن في كلمة المساواة إجمالًا ولبسًا بخلاف العدل، فإنها كلمة واضحة بينه صريحة في أن المراد أن يعطى كل ذي حق حقه.

فكلمة (العدل) تقتضي أن يتولى الرجل ما يناسبه من أعمال، وأن تتولى المرأة ما يناسبها من أعمال، بينما كلمة مساواة: تعني أن يعمل كلٌ من الجنسين في أعمال الآخر!

ومدلول كلمة العدل: أن تعمل المرأة عددًا من الساعات يناسب بدنها وتكوينها الجسمي والنفسي، بينما مقتضى المساواة: أن تعمل المرأة نفس ساعات الرجل، مهما اختلفت طبيعتهما! وهذا كلّه عين المضادة للفطرة التي فطر الله عليها كلًا من الرجل والمرأة!

ولهذا لما أصرت بعض المجتمعات الغربية على هذه المصادمة للفطرة، وبدأت تساوي المرأة بالرجل في كل شيء ذاقت ويلاتها ونتائجها المرة، فصرخ عقلاؤهم محذرين مجتمعاتهم من الاستمرار في هذه المصادمة، التي يرددها -وللأسف- بعض المنتسبين للإسلام من غير وعي بخطورتها.



المجلس السابع

﴿ هُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِ ﴾[1]

من الآيات الكريمة التي كانت سببًا في إسلام بعض النصارى المعاصرين، قوله تعالى: ﴿ هُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِ ﴾ (آل عمران: ١٦٣).

وليتضح وقْع هذه الآية ومعناها؛ فيَحْسُنُ ذكر الآية التي قبلها، وهي قوله تعالى: ﴿ أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦٢﴾ هُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾ (آل عمران: ١٦٢، ١٦٣)، والمعنى: أنهم «مختلفو المنازل عند الله، فلمن اتبع رضوان الله، الكرامة والثواب الجزيل، ولمن باء بسخط من الله، المهانة والعقاب الأليم»[2].

حدّثت أختٌ أمريكية أن سبب إسلامها؛ هو قراءتها لترجمة معنى هذه الآية، فتقول: عرضتُ نفسي وواقعي على هذه الآية، فوجدت أن حالي

---

(١) كتبه: د. عمر بن عبدالله المقبل، رئيس مجلس إدارة الهيئة العالمية لتدبر القرآن الكريم، الأستاذ المشارك بجامعة القصيم.

(٢) تفسير الطبري (٧/ ٣٦٧).

وأعمالي لا تستحق إلا سخط الله! فقادني فهم هذا المعنى إلى الإسلام، الذي اطّلَعَتُ في كتابه المقدس -القرآن- كيف حثّ على كل فضيلة، ونهى عن كل رذيلة.

إن في هذه الآية من المعاني التي إذا تدبرها القارئ؛ كانت سببًا لتحفيزه إلى المعالي، ومن ذلك:

أولًا: تمّ عَرْضُ هذه القضية الكبرى -نيل الرضوان، والتعرض لسخط الله- بصيغة الاستفهام، وما ذاك إلا لغرض بلاغي، يراد منّا أن نعيه جيدًا؛ وهو أن الاستفهام يستنطقُ أهل القرآن بالجواب القاطع، وهو وإن لم يذكر صراحة، لكنه أشار إليه بقوله: ﴿هُمۡ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِ﴾.

ثانيًا: دلّ قوله تعالى: ﴿أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَ ٱللَّهِ﴾ على أن رضوانه تعالى لا ينال بالتشهّي، بل لا بد من الاجتهاد في تلمس أسبابه؛ فإنه تعالى قال: ﴿أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ﴾، وإلا لو كانت المطالب العالية تنال بالأماني، لوصلها كل الخلق، ولكن هيهات هيهات.

«فالمتبعون لرضوان الله يسعون في نيل الدرجات العاليات، فيعطيهم الله من فضله وجوده على قدر أعمالهم، والمتبعون لمساخط الله يسعون في النزول في الدركات إلى أسفل سافلين، كلٌّ على حسب عمله»[1].

(١) تفسير السعدي (١٥٥).

ثالثًا: جاء التعبير بالفعل ﴿بَآءَ﴾ في قوله تعالى: ﴿كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٖ مِّنَ ٱللَّهِ﴾؛ لتمثيل حال صاحب المعاصي بالذي خرج يطلب ما ينفعه فرجع بما يضره، أو رجع بالخيبة والخسران[1]، والعياذ بالله!

ومن تأمل القرآن أدركَ أسبابَ نيل الرضوان، وأسبابَ التعرض لسخطِ الجبّار، فحري بالمؤمن أن يتتبعها، وينظر أين موقعه من تلك الأعمال؟ ومنزلته من منازل الرضوان؟

رابعًا: جرت عادة القرآن على أن ما كان من الثواب والرحمة، فإن الله يضيفه إلى نفسه، وما كان من العقاب لا يضيفه إلى نفسه، وهو هنا كذلك، فقد قال تعالى: ﴿رِضۡوَٰنَ ٱللَّهِ﴾، بينما في السخط قال: ﴿بِسَخَطٖ مِّنَ ٱللَّهِ﴾[2].

خامسًا: ما أعظم الإغراء في قوله تعالى: ﴿هُمۡ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِ﴾، فقال: ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ تنويهًا بشرف منازلهم، فيكفي أنها عند الله.

فابحث -يا عبد الله- عن منزلتك عند الله، وابْكِ على ما يقطعك عن هذه الدرجات، أو يؤخرك عن صعودها من المعاصي والبدع.

أما الخلق، فهم كما قال مالك بن دينار: «منذ عرفت الناس لم أفرح بمدحتهم ولم أكره مذمتهم» قيل: ولِمَ ذاك؟ قال: «لأن حامدهم مفرط وذامهم مفرط»[3].

---

(١) ينظر: التحرير والتنوير (٤/ ١٥٧).

(٢) ينظر: مفاتيح الغيب (٩/ ٤١٦).

(٣) ينظر: الزهد الكبير للبيهقي (ص: ١٠١).

وسبحان من أرى عباده اجتماع هذا المعنى الذي دلّت عليه الآية في أسرة واحدة، الزوج عدو لله، باء بسخط من الله وغضب، وأما الزوجة فقد اتبعت رضوان الله، فارتفعت عند الله درجات.

سادسًا: ما أجمل ختم الآية الثانية بقوله: ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ﴾! فكم تسكب هذه الآية الطمأنينة في قلوب الخلق! لعلمهم بكمال اطلاعه تعالى، فلا تضيع عنده حسنة، ولا تهدر عنده سيئة بدرت منهم.

وفي اختيار الفعل (يعمل) دون (يفعل)، أو (يقول) سرٌّ بديع؛ لأنه يشمل القول والفعل، فالقلب عمله النية، واللسان عمله القول، والأذن عملها الاستماع، والعين عملها النظر، ولا يمكن أن يأتي فعلٌ أنسب -في هذا السياق- من كلمة (يعملون).



المجلس الثامن

﴿إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًا﴾[1]

يقول الله -تبارك وتعالى- في تعقيبه على قصة غزوة أحد وما تلاها من أحداث بين المسلمين وأعدائهم من الكفار: ﴿إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ﴾ أي: الكفار ﴿لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًا﴾(آل عمران: ١٧٨).

وفي هذه الآية الكريمة دليل على أن من أعظم ما يصد عن الهدى، ويقود إلى مهاوي الردى الاغترارَ بإمهال الله للمسيئين، فمن الناس من يسرف على نفسه بالمعاصي، فإذا نصح عنها، وحُذِّر من عاقبتها، قال: ما بالنا نرى أقوامًا قد امتلأت فجاجُ الأرض بمفاسدهم، ومباذلهم، وظلمهم، وقتلهم الأنفس بغير الحق، وأكلهم أموال الناس بالباطل، وأكلهم الربا وقد نهوا عنه، ومع ذلك نراهم وقد درت عليهم الأرزاق، وأنسئت لهم الآجال، وهم يعيشون في رغد ونعيم بعيد المنال؟

(١) كتبه: د. محمد بن إبراهيم الحمد، عضو هيئة التدريس بكلية الشريعة والدراسات الإسلامية بجامعة القصيم، والمشرف العام على موقع دعوة الإسلام.

ولا ريب أن هذا القول لا يصدر إلا من جاهل بالله، وبسننه سبحانه وتعالى.

ويقال لهذا وأمثاله: رويدك رويدك؛ فالله سبحانه وتعالى يعطي الدنيا من يحب، ومن لا يحب، وهؤلاء المذكورون مُتَبَّرٌ ما هم فيه، وباطل ما كانوا يعملون، فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم؛ فما الذي هم فيه من النعيم إلا استدراج، وإمهال، وإملاء من الله سبحانه وتعالى حتى إذا أخذهم أخذهم أخذ عزيز مقتدر[1].

قال النبي صلى الله عليه وسلم: «**إن الله ليملي للظالم، حتى إذا أخذه لم يفلته، ثم قرأ قوله تعالى:** ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٞ شَدِيدٌ﴾ (هود: ١٠٢)»[2].

وقال صلى الله عليه وسلم: «**إذا رأيت الله سبحانه وتعالى يعطي العبد من الدنيا على معاصيه ما يحب، فإنما هو استدراج، ثم تلا قوله سبحانه وتعالى:** ﴿فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحۡنَا عَلَيۡهِمۡ أَبۡوَٰبَ كُلِّ شَيۡءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذۡنَٰهُم بَغۡتَةٗ فَإِذَا هُم مُّبۡلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْۚ وَٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ (الأنعام: ٤٤-٤٥)»[3].

---

(١) ينظر: أثر الذنوب في هدم الأمم والشعوب للصواف (ص ٤٥_٤٧).
(٢) أخرجه البخاري (٤٦٨٦)، ومسلم (٢٥٨٣).
(٣) أخرجه أحمد (١٤٥)، وابن أبي الدنيا في الشكر (٣٢) بسند رجاله ثقات.

قال ابن الجوزي: «فكل ظالم معاقبٌ في العاجل على ظلمه قبل الآجل، وكذلك كل مذنبٍ ذنبًا، وهو معنى قوله تعالى: ﴿مَن يَعۡمَلۡ سُوٓءٗا يُجۡزَ بِهِۦ﴾ (النساء: ١٢٣)، وربما رأى العاصي سلامة بدنه؛ فظن أن لا عقوبة، وغفلتُه عما عوقب به عقوبة.

وقد قال بعض الحكماء: المعصية بعد المعصية عقاب المعصية، والحسنة بعد الحسنة ثواب الحسنة، وربما كان العقاب العاجل معنويًّا، كما قال بعض أحبار بني إسرائيل: (يا رب! كم أعصيك، ولا تعاقبني!) فقيل له: كم أعاقبك وأنت لا تدري؟! أليس قد حرمتك حلاوة مناجاتي؟»[١].

قال ابن الجوزي: «الواجب على العاقل أن يحذر مغبة المعاصي؛ فإن نارها تحت الرماد، وربما تأخرت العقوبة، وربما جاءت مستعجلة»[٢].

وقال: «قد تبغت العقوبات، وقد يؤخرها الحلم، والعاقل من إذا فعل خطيئة بادرها بالتوبة، فكم مغرور بإمهال العصاة لم يمهل.

وأسرع المعاصي عقوبة ما خلا عن لذة تنسي النُّهى، فتكون كالمعاندة والمبارزة، فإن كانت توجب اعتراضًا على الخالق، أو منازعة له في عظمته، فتلك التي لا تُتلافى، خصوصًا إذا وقعت من عارف بالله؛ فإنه يندر إهماله»[٣].

(١) صيد الخاطر، ص١٠٤.
(٢) صيد الخاطر، ص٣٣٩.
(٣) صيد الخاطر، ص٥٠٠.



وقال: «فالحذر الحذر من عواقب الخطايا، والبدار البدار إلى محوها بالإنابة؛ فإن لها تأثيراتٍ قبيحةً إن أسْرَعَتْ، وإلا اجتمعتْ وجاءتْ»[1].

يا من غدا في الغي والتيه — وغره طول تماديه

أملى لك الله فبارزته — ولم تخف غِبَّ معاصيه[2]

(١) صيد الخاطر، ص٥٠٢.

(٢) بحر الدموع، ص٣٦.



المجلس التاسع

﴿كُلُّ نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِۗ﴾[1]

من الآيات التي وعظ الله بها عباده: قوله سبحانه: ﴿كُلُّ نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوۡنَ أُجُورَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۖ فَمَن زُحۡزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدۡخِلَ ٱلۡجَنَّةَ فَقَدۡ فَازَۗ وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلۡغُرُورِ﴾ (آل عمران: ١٨٥).

وعبرّ هنا بالذوق في قوله:﴿ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِ﴾؛ لأنه أبلغ في الحصول؛ لأن الذوق يحصل به حق اليقين.

ودخل في قوله: ﴿كُلُّ نَفۡسٖ﴾ بنو آدم، والجن، والملائكة، والحيوانات، وكل نفس، كما قال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ (الزمر: ٦٨)، ويستثنى من خُلقوا للبقاء كالولدان والحور الذين في الجنة؛ فإنهم خلقوا للبقاء فلا يموتون.

---

(١) للعلامة ابن عثيمين رحمه الله، ملخصًا من تفسيره للآية في سورة آل عمران: (٢/ ٥١١).



وقوله: ﴿وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ هذه حصر، يعني: لا توفَّون أجوركم إلا يوم القيامة، والمراد بالتوفية هنا: توفيَة الكمال، وإلا فإن الإنسان قد يوفَّى أجره في الدنيا، ويُدَّخر له أيضًا زيادةً على ذلك، والكافرُ أيضًا يوفَّى أجره في الدنيا، مثل ما عمل من خير فإنه يُطعم به في الدنيا، لكن في الآخرة ليس له خلاق.

قوله تعالى: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾، ومعنى ﴿زُحْزِحَ﴾: أي دُفع ببطء؛ وذلك لأن النار -أعاذنا الله منها- محفوفةٌ بالشهوات، والشهوات تميلُ إليها النفوس، فلا يكاد الإنسان ينصرف عن هذه الشهوات إلا بزحزحة؛ لأنه يُقبل عليها بقوَّة، لهذا قال: ﴿زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ﴾ أي: دُفع عنها بمشقَّةٍ وشدَّة، ﴿وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾؛ لأنه نجا من المرهوب وحصل على المطلوب.

وقد أفادت الآية الكريمة أن الفوز لا يكمل إلا بأمرين: أن يُزحزح الإنسان عن النار، وأن يُدخل الجنة. ومعلوم أن من زُحزح عن النار فلا بد أن يُدخل الجنة؛ لأنه ليس في الآخرة إلا داران فقط: إما النار وإما الجنة.

وقد بيَّن النبي ﷺ في الحديث الصحيح ما يحصل به هذا الثواب العظيم مِن الزحزحة عن النار وإدخال الجنة، فقال: «**من أحب أن يُزحزح عن النار ويدخل الجنة فلتأته منيَّته وهو يؤمن بالله واليوم الآخر، وليأت إلى الناس ما يحب أن يُؤتى إليه**»(١)، فذكرَ حقَّ الله وحقَّ العباد، فمن وجد من نفسه هذين الوصفين: الإيمان بالله واليوم الآخر، وأنه يأتي إلى الناس ما يحب أن يؤتى إليه؛ فليبشر بهذا.

وقد وصفت الدنيا بهذا لوجهين: الأول: لدنوِّها زمنًا، والوجه الثاني: لدنوِّها قدرًا. أما دنوها زمنًا فظاهر؛ لأنها قبل الآخرة، وأما دنوها قدرًا فقد قال النبي ﷺ: «**لموضع سوط أحدكم في الجنة خير من الدنيا وما فيها**»(٢). وموضع السوط لعله يقارب المتر! «**خير من الدنيا وما فيها**» ليست دنياك التي أنت فيها، وليست دنياك الخاصة بك أنت، بل الدنيا من أولها إلى آخرها.

وقوله: ﴿إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ أي: إلا متعة تغر صاحبها وتخدعه، وكم من أناس زُيِّنت لهم الدنيا فانخدعوا بها، وكان مآلهم إلى وادٍ سحيق -والعياذ بالله-.

---

(١) مسلم ح (١٨٤٤).

(٢) البخاري ح (٢٨٩٢).

فعلى العبد الحذر من مغبَّتها وغرورها، ولهذا ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «**والله ما الفقرَ أخشى عليكم، ولكني أخشى أن تبسط عليكم الدنيا كما بسطت على من قبلكم فتُنافسوها كما تنَافسها مَن قبلكم، فتهلككم كما أهلكتهم**»[١]، وصدق الرسول ﷺ فإن هذا هو الخوف، وانظروا الآن لمَّا فُتِحت الدنيا على الناس حصل الهلاك، بل حتى الذين لم تُفتح عليهم إذا سمعوا من فُتحت عليهم هلكوا.

وعلى المؤمن أيضا أن يبادر للعمل الصالح؛ لأنه إذا كان ميتًا -ولا محالة- وهو لا يدري متى يموت؛ فإن العقل كالشرع يقتضي أن يُبادر ولا سيَّما في قضاء الواجبات والتخلي عن المظالم، فلا تُهْمِلْ ولا تؤخِّر، فإن التأخير له آفات، كثيرًا ما يقول الإنسان: أنا سأفعل هذا غدًا ولكن يتهاون، ثم يأتي غد وما بعده، ويضيع عليه الوقت.

(١) البخاري ح (٤٠١٥).



جنات وظلال لأهل الإيمان(١)

يقول الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ لَّهُمۡ فِيهَآ أَزۡوَٰجٞ مُّطَهَّرَةٞۖ وَنُدۡخِلُهُمۡ ظِلّٗا ظَلِيلًا﴾ (النساء: ٥٧).

هذه الآية الكريمة جاءت بعد قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَوۡفَ نُصۡلِيهِمۡ نَارٗا كُلَّمَا نَضِجَتۡ جُلُودُهُم بَدَّلۡنَٰهُمۡ جُلُودًا غَيۡرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمٗا﴾ (النساء: ٥٦) وهذه طريقة القرآن؛ فإنه مثاني: تثنى فيه المعاني، فإذا ذكر فيه أهل النار ذُكِرَ فيه أهل الجنة، وإذا ذكر الحق ذكر الباطل، وهكذا.

وقدّم الله الإيمان على العمل الصالح في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾؛ لأن العمل الصالح مبني على الإيمان، فعمل بلا إيمان لا فائدة منه، فالمنافقون يعملون، ويذكرون الله، ويصلون، ويتصدقون، ولكن ليس عندهم إيمان فلا ينفعهم.

---

(١) للعلامة ابن عثيمين رحمه الله، ملخصًا من تفسيره لهذه الآية في سورة النساء.

والأعمال الصالحة: هي التي جمعت الإخلاص لله والمتابعة للرسول ﷺ.

وقوله: ﴿سَنُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٍ﴾ بينما قال في أهل النار -في الآية التي قبلها-: ﴿سَوۡفَ نُصۡلِيهِمۡ﴾ فما الحكمة من ذلك؟

والجواب: أن أهل النار يفسح لهم لعلهم يتوبون إلى الله فيرجعون، وحينئذ لا يكونون من أهل النار، أما أهل الجنة فإنهم يدخلون الجنة، ولكن ليس المقصود جنة الآخرة فحسب، لكن يدخلون جنة الدنيا قبل جنة الآخرة، كما في قوله تعالى: ﴿مَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَنُحۡيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةٗ طَيِّبَةٗ﴾ (النحل: ٩٧).

والمراد بالجنات في قوله: ﴿سَنُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٍ﴾: ما أعده الله في الدار الآخرة لهؤلاء المؤمنين، ولا يَحسُن هنا أن نقول: الجنات: جمع جنة وهي البستان الكثير الأشجار؛ لأن هذا ينقص من شأن الجنة، إذ لا ينصرف إلا إلى بساتيننا في الدنيا، وهي مرة تيبس، ومرة تخضر، ومرة تصيبها الرياح، ومرة تستقيم، لكن إذا قلتَ: الجنات: جمع جنة: وهي الدار التي أعدها الله سبحانه للمتقين، فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر؛ حينئذ يبتهج القلب ويسر.

وقوله: ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ أي: تحت أشجارها وقصورها، أنهار مطردة تحت الأشجار وتحت القصور، فهي من تحتها، وهذه الأنهار جاءت مفسّرة في قوله تعالى: ﴿مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾ (محمد: ١٥).

قوله: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ فهو خلود أبدي لا منتهى له.

قوله: ﴿لَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾ أي: للذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴿أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾ أزواج: جمع زوج، وهي الأنثى، وقد دلّت السنة على أن الواحد له أزواج متعددة، سواء من أهل الدنيا أو ممن خلق الله في الجنة وهن الحور.

وقوله: ﴿مُّطَهَّرَةٌ﴾ طهارة حسية: من البول والغائط، والحيض، والعرق، والرائحة المنتنة وغير ذلك، من كل ما يستحب إزالته والتنزه عنه فهي مطهرة منه.

ومطهرة أيضًا طهارةً معنويةً، فهي خالية من كل خلق سيء، لا غضب ولا تكرب للزوج، ولا عصيان، ولا اكفهرار في وجهه.

ولو اعترضت النساء وقلن: الرجال لهم أزواج مطهرة فما بالنا نحن؟ فنقول لهن: أنتن لَكُنَّ أزواج مطهرون، فالله طيب لا يقبل إلا طيبًا، ولا يكون

جاره إلا الطيب، وأنتن في الآخرة كل واحدة منكن لا تريد إلا زوجها، كما قال: ﴿فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرۡفِ﴾ (الرحمن: ٥٦)، ولكن لما كان الزوج هو الطالب غالبًا صار هو الذي يقال له: لك زوجة فيها كذا وفيها كذا، أما الزوجة فلا تكون طالبة إلا نادرًا.

قوله تعالى: ﴿وَنُدۡخِلُهُمۡ ظِلّٗا ظَلِيلًا﴾ الظل: هو ما لم تحله الشمس، سواء كان فيئًا أم ظلًّا من أول النهار، وأما الظليل فهو الذي تحصل به فائدة الاستظلال؛ لأن من الظل ما ليس بظليل، فلو جلست تحت ظل جدار في أيام الصيف فأنت في ظل، لكنه ليس بظليل؛ لأن لفح الحر يأتيك، لكن الجنة ظل ظليل.

وجملة الآية فيها الحث على الإيمان والعمل الصالح؛ لأن الله سبحانه إنما ساق بيان نعيمهم حثًا على أن نعمل العمل الموصل إلى ذلك، نسأل الله بمنّه وكرمه أن يوفقنا لعمل الصالحات، والتوبة قبل الممات.



المجلس الحادي عشر

﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥ﴾[1]

هل سألنا أنفسنا -أثناء عباداتنا- عن مدى فهمنا لحقيقة العبادة وهل صدرت عن محبة لله تعالى؟

والأهم من ذلك: هل الله رضي منا هذه العبادة وأحبنا؟ وما السبيل لمعرفة ذلك؟

إن عبادة الله سبحانه وتعالى مبنية على محبته، وعبادة بلا محبة كجسد بلا روح؛ ولهذا نجد المشركين حين أحبوا آلهتهم أوصلتهم هذه المحبة إلى أن عبدوها من دون الله -عز وجل-.

قال الله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾(البقرة: ١٦٥) قال الشيخ عبدالرحمن السعدي رحمه الله: «إن اتخاذ أنداد من الخلق يحبهم كحب الله، ويقدم طاعتهم على طاعة الله، ويلهج بذكرهم ودعائهم، هو الشرك الأكبر الذي لا يغفره الله»[2].

(١) كتبته: د. أسماء بنت راشد الرويشد، المشرفة العامة على مركز آسية، وعضو الهيئة العالمية لتدبر القرآن.

(٢) القول السديد، ص(١١٧).

قال ابن تيمية رحمه الله: «فالعبادة تتضمن كمال الحب ونهايته، وكمال الذل ونهايته، فالمحبوب الذي لا يُعظَّم ولا يُذلُّ له لا يكون معبودًا، والمعظَّم الذي لا يُحَبُّ لا يكون معبودًا»(١).

وحقيقة ذلك أن يقوم في القلب من محبة الله، وتعظيمه والذل له، ما يقتضي الامتثال لأمره، وكمال طاعته، وإيثاره على غيره.

فإذا أراد العبد أن يحصّل تلك المحبة، ويترقى في درجاتها؛ فعليه بالدليل على صدق محبته من خلال العمل بطاعة الله، وذاك هو الطريق الموصل إلى منْزلة محبة الله له، إذ لا يمكن للعبد أن يصل إلى منْزلة محبوبية الله تعالى، حتى يؤدي براهين محبته لربه، ويقدم دلائل طاعته.

ولكل من المنْزلتين -نعني المحبة والمحبوبية- درجات وعلامات، تكون بحسب قيام العبد بحق ربه، وصدقه، واجتهاده.

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ لَآئِمٖۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾(المائدة: ٥٤).

﴿يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ خبرٌ تهش له نفس المؤمن ويشتاق له قلب التقي.

وليس العجيب أن يحب العبد ربه وهو الذي أوجده وتفضل عليه، ولكن العجيب هو أن يحب اللهُ عبدَه الفقير إليه!

---

(١) الجواب الكافي ص (٢١١).

وما أجمل المقابلة ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾، فهل حُبٌّ بحُبٍّ أزكى من حب الرب للعبد؟!

إنها لأشرف المنازل وأسنى المطالب، فيها يتنافس المتنافسون، ولأجلها يعمل العاملون.

والمحب الصادق محبوباته كلها تبعًا لما يحب ربه، فهو لا يحب إلا له وفيه، ولا تستقيم المحبة إلا بذلك؛ ولهذا كان رأس الإيمان الحب في الله والبغض في الله، وكما جاء في الحديث فإن: «**من أحب لله، وأبغض لله، وأعطى لله، ومنع لله، فقد استكمل الإيمان**»[1].

وهناك دلائل يجدها المحب في قلبه وعمله، يقول الربيع بن أنس: «علامة حب الله كثرة ذكره، فإنك لا تحب شيئا إلا إذا أكثرت من ذكره»[2].

ويقول ابن مسعود رضي الله عنه: «لا ينبغي أن يسأل أحدكم عن نفسه إلا القرآن، فإن كان يحب القرآن فهو يحب الله، وإن لم يكن يحب القرآن فليس يحب الله»[3].

وأما الميزان الذي يُعرف به المحب الصادق من المدعي، هو ما جاء في (آية الامتحان):

---

(١) رواه أبو داود، ح (٤٦٨١)، والترمذي (٨٥)، والحاكم (١٦٤).
(٢) المخلاة، بهاء الدين العاملي (٤٥).
(٣) رواه الطبراني في المعجم الكبير (٨٦٥٨)، والهيثمي في مجمع الزوائد (١٦٨).

﴿قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ (آل عمران:٣١) قال الحافظ ابن كثير رحمه الله في تفسيره لهذه الآية: «هذه الآية حاكمة على كل من ادَّعى محبة الله، وليس هو على الطريقة المحمدية؛ فإنه كاذب في دعواه في نفس الأمر، حتى يتبع الشرع المحمدي، والدين النبوي في جميع أقواله وأفعاله وأحواله»[١].

وعلى ذلك فمن دلائل حب العبد لربه تقديم ما يحبه الله ورسوله على ما تحبه نفسه، ويتبيّن ذلك عند تعارض محاب النفس والهوى مع أمر الله ونهيه، فإن كان الحب قويًا صادقًا، فلن يتردد في مخالفة هواه تبعا لمرضاة الله.

(١) تفسير ابن كثير (١/ ٤٧٧).



المجلس الثاني عشر

﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾[1]

قال ابن كثير رحمه الله: «الآية عظيمة العموم والشمول».[2]

رحمة الله العامة تغمر كل الخلائق، كل العوالم، كل الأشياء.. آثار رحمة الله في كل الوجوه، والأجناس، والأعراق.. تفحص آثار هذه الرحمة في كل مخلوق تراه، وكل بشر تشاهده.

راقب الرحمة في إشراق الشمس، وبزوغ القمر، وتدفق النهر، ونمو الحبة، وتفتح الزهرة، في إقبال الليل، في رحيل الظلام.

تحسس الرحمة في كل نبضة تخفق في قلبك، وكل قطرة دم تمشي في شرايينك، وفي كل خلية من مليارات الخلايا تعمل في جسدك.

استنشق الإيمان بهذه الرحمة مع الهواء اللطيف يسري في رئتيك، ومع قطرات الماء البارد في فمك، تحسسها مع خطو القدم، تحسسها في أرض تحملك، وسماء تظلك، وطريق يهديك، تحسسها في بسمتك وفي دمعتك وفي فرحتك وفي ألمك.

---

(١) كتبه: د. عبدالله بن بلقاسم.

(٢) تفسير القرآن العظيم (٣/ ٤٨١).

استقبلها في ركضة طفل، وحضن أم، وعناق أب.

الرحمة معك تلف حياتك، تحيط بك، وتغمرك، تستوعبك، وتذهب في كل تفاصيل جسدك، وومضات حياتك.

اقرأ رحمة الله بك في وجوه تبسمت لك، ونفوس أحبتك، وخلق ساعدوك.

تذوقها مع لقمة سيقت إليك، وثوب نسج من أجلك،ومركب عَبَرَ البحار إليك.

دقق في آثارها في يديك وجلدك، انظر إليها في أناملك، انظر في عينك بعينك، بل اقرأها في وجعك، وفقرك، وتعبك، وغربتك، وعجزك؛ ستجدها معك تلاحقك، تختلط مع دموعك، وتمتزج بحزنك.

فتش صفحات حياتك، اقرأ سطور الرحمة التي كتبت بها تفاصيل سيرتك، اقرأ قصتك في أحشاء أمك، في ظلام حزنك، استمع لصوت يواسيك في داخلك، يهتف بك في أعماقك، يخفض وجعك.

ولا تنس في زحام الرحمات وذكرياتها، أن تلتفت بكل مشاعرك وعقلك وحسك نحو الرحمة العظمى، التي أعطاك ربك وهداك لها: (القرآن العظيم) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ (يونس: ٥٧)، ثم ارحل في الرحمات مع آياته.

اهتف في داخلك بقول ربك: ﴿وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖ﴾ (الأعراف:١٥٦) تلذذ بها في حياتك، اعبر بها مآسيك وذكرياتك، املأ بها قلبك، بدد بها مخاوفك، امض بها إلى مستقبلك، اصطحب اليقين بها في كل حياتك.

﴿وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖ﴾ كل شيء، في كل وقت،كل لحظة حزن، كل ومضة ألم، كل خاطرة خوف، وسعته، أحاطت به، غمرته، لفته، تخللته.

وسعتك أنت، وسعت أطفالك وأحباءك، وسعت ماضيك، وحاضرك، ومستقبلك، وسعتك في بيتك، وعملك، وسفرك، وحضرك، وحربك، وسلمك، ورزقك، ومرضك.

تحسسها في دموعك عند فراق الأحبة، تحسسها في خفق قلبك عندما يشتكي ابنك، تحسسها في لوعتك بحزن أمك، تأملها في الطير يضع الحبة في جوف صغاره، وفي أم الغزال تستبسل في وجه الأسد تحميه.

كل هذا من رحمة واحدة مخلوقة من مائة رحمة، من آثار الرحمة الكبرى التي هي صفته جل جلاله.

فيا ليت شعري كيف يقنط القانطون، وينقطع اليائسون؟!وربهم يقول لهم: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾.

في كل وقت وحين، أيقظ بهذه الآية التوبة في قلبك، وحرك بها محبة الله في جنانك، غير بها حياتك.

اشعر بهذه الرحمة الواسعة تحفك وتحويك، تعرض لها في مواطن الرحمة.

اقترب من الرحمة الخاصة التي جعلها الله للمحسنين ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾(الأعراف: ٥٦).



المجلس الثالث عشر

﴿وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ﴾(١)

يقول الله تعالى في قصة نبيه شعيبٍ عليه السلام: ﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا ۖ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ ۖ وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾(هود:٩١).

فبين تعالى في هذه الآية أن نبيه شعيبا -عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام- منعه الله من الكفار، وأعز جانبه بسبب العواطف العصبية، والأواصر النسبية من قومه الذين هم كفار، وهو دليل على أن المتمسك بدينه قد يعينه الله، ويعزه بنصرة قريبه الكافر، كما بينه تعالى في مواضع أخر، كقوله في صالح وقومه: ﴿قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾(النمل:٤٩).

---

(١) للعلامة الشنقيطي رحمه الله، ينظر: "أضواء البيان" (٢/ ١٩٨-٢٠٠) ملخصا.

ففي الآية دليل على أنهم لا قدرة لهم على أن يفعلوا السوء بصالح -عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام- إلا في حال الخفاء، وأنهم لو فعلوا به ذلك خفاء وسرقة لكانوا يحلفون لأوليائه -الذين هم عصبته- أنهم ما فعلوا به سوءًا، ولا شهدوا ذلك ولا حضروه خوفا من عُصْبَتِهِ، فهو عزيز الجانب بسبب عصبته الكفار.

وقد قال تعالى لنبينا ﷺ: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ﴾(الضحى:٦)، أي: آواك بأن ضمك إلى عمك أبي طالب؛ وذلك بسبب العواطف العصبية، والأواصر النسبية، ولا صلة له بالدين البتة، فكونه سبحانه وتعالى يمتن على رسوله ﷺ بإيواء أبي طالب له؛ دليل على أن الله قد ينعم على المتمسك بدينه بنصرة قريبه الكافر.

ولهذا لما كان نبي الله لوط -عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام- ليس له عصبة في قومه الذين أرسل إليهم؛ ظهر فيه أثر عدم العصبة، بدليل قوله تعالى عنه: ﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾(هود: ٨٠).

ولما ناصر بنو المطلب بن عبد مناف بني هاشم، ولم يناصرهم بنو عبد شمس بن عبد مناف، وبنو نوفل بن عبد مناف عرفَ النبي ﷺ لبني المطلب تلك المناصرة التي هي عصبية نسبية لا صلة لها بالدين، فأعطاهم من خمس

الغنيمة مع بني هاشم، وقال: «**إنا وبني المطلب لم نفترق في جاهلية ولا إسلام**»(١) ومنع بني عبد شمس، وبني نوفل من خمس الغنيمة، مع أن الجميع أولاد عبد مناف بن قصي.

فهذه الآيات القرآنية تدل على أن الله قد يعين المؤمن بالكافر لتعصبه له، وربما كان لذلك أثرٌ حسنٌ على الإسلام والمسلمين، وقد يكون من منن الله على بعض أنبيائه المرسلين -صلوات الله وسلامه عليهم-، وفي الصحيح عنه ﷺ أنه قال: «**إن الله ليؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر**»(٢)، وفي المثل: (اجتن الثمار وألق الخشبة في النار).

فإذا عرفت دلالة القرآن على أن المسلم قد ينتفع برابطة نسب وعصبية من كافر، فاعلم أن النداء بالروابط العصبية لا يجوز؛ لإجماع المسلمين على أن المسلم لا يجوز له الدعاء بـ(يا لبني فلان) ونحوها.

وقد ثبت في البخاري من حديث جابر رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال في تلك الدعوة: «**دعوها فإنها منتنة**»(٣)، وقوله ﷺ: «**دعوها**» يدل على وجوب تركها، ويؤكد ذلك تعليله الأمر بتركها بأنها منتنة.

---

(١) أبو داود ح (٢٩٨٠)، والنسائي ح (٤١٣٧)، وأصله في البخاري (٣١٤٠) بلفظ: «إنما بنو المطلب، وبنو هاشم شيء واحد».
(٢) البخاري ح (٣٠٦٢)، مسلم ح (١١١).
(٣) البخاري ح (٤٩٠٥)، مسلم ح (٢٥٤٨).

وما صرح النبي ﷺ بالأمر بتركه وأنه منتن لا يجوز لأحد تعاطيه، وإنما الواجب على المسلمين النداء برابطة الإسلام التي هي من شدة قوتها تجعل المجتمع الإسلامي كله كأنه جسد إنسان واحد، فهي تربطك بأخيك المسلم كربط أعضائك بعضها ببعض، قال ﷺ: «**إن مثل المؤمنين في تراحمهم وتوادهم كمثل الجسد الواحد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى**»[1].

وإذا تأملت قوله تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾(المجادلة: ٢٢) تحققت أن الروابط النسبية تتلاشى مع الروابط الإسلامية، ولا يخفى أن أسلافنا معاشر المسلمين إنما فتحوا البلاد ومصروا الأمصار بالرابطة الإسلامية، لا بروابط عصبية، ولا بأواصر نسبية.

---

(١) البخاري ح (٦٠١١)، مسلم، ح (٢٥٨٦).



المجلس الرابع عشر

﴿فَٱللَّهُ خَيۡرٌ حَٰفِظٗا﴾[1]

غالبًا ما نسمع عن حوادث تقع لأناس، وكل المؤشرات تدل على هلاكهم، لكن الله سبحانه وتعالى يحفظهم وينجّيهم منها، لماذا؟

دعونا نتأمل قول الله تعالى: ﴿فَٱللَّهُ خَيۡرٌ حَٰفِظٗاۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾(يوسف: ٦٤)، وهي آية كريمة قالها يعقوب عليه السلام عندما طلب منه أبناؤه أن يرسل معهم أخاهم بنيامين، لعلهم يظفرون ببغيتهم من الطعام لدى عزيز مصر.

ونلحظ هنا ختم هذه الآية بقوله: ﴿وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾فهي تشير إلى أن حالة الضعف التي تكتنف قلب العبد عند الدعاء، لها أثرٌ في استجابة العبد؛ فإن يعقوب عليه السلام أشار بهذا، فكأنه يقول: «هو أرحم الراحمين بي، وسيرحم كبري وضعفي ووجدي بولدي، وأرجو من الله أن يرده علي، ويجمع شملي به، إنه أرحم الراحمين»[2].

(١) كتبه: د. محمد بن مصطفى السيد، عضو الهيئة العالمية لتدبر القرآن.
(٢) تفسير ابن كثير (٤/ ٣٩٩).

وهذا كلّه يؤكّد في نفوسنا معنى اسمه تعالى: الحافظ، وكذلك الحفيظ، فهما دالان على أن الله يحفظ عباده، وفي ضمن هذا: حضّ للمؤمنين على المزيد من العناية والرعاية.

ولما كانت الملائكة من جند الله وعباده الذين لا يعصونه، فقد جعل سبحانه أحد مهامهم: حفظ عباده المؤمنين مما يكدرهم، بدنيًا أو روحيًا: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٞ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ﴾(الرعد:١١).

لكن ما الطريق للوصول إلى هذا الحفظ؟

إن من أهم الطرق الموصلة إلى حفظ الله أن تحفظ الله، كما في وصية النبي ﷺ لابن عباس رضي الله عنهما: «**احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك...**»[(١)]، وحفظك لله يعني: حفظ حقوقه وحدوده، وهناك حفظ خاص: منه قراءة آية الكرسي وخواتيم البقرة، فقد ورد فيها فضائل تتحدّث عن دورها في حماية الإنسان وحفظه.

فمنها قصة أبي هريرة رضي الله عنه مع الشيطان حين علّمه كلمات حيث قال له الشيطان: دعني أعلمك كلمات ينفع الله بها، قلت (أي: أبو هريرة): ما هي؟ قال: إذا أويت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسي: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ﴾(البقرة:٢٥٥)، حتى تختم الآية، فإنه لا يزال عليك من الله حافظ،

(١) الترمذي، ح (٢٥١٦)، أحمد (٢٧٦٣).

ولا يقربك شيطانٌ حتى تصبح،... فقال النبي ﷺ: «**أما إنّه صدقك وهو كذوبٌ**»[1]، والشاهد من الكلام قوله: «فإنه لا يزال عليك من الله حافظ، ولا يقربك شيطانٌ حتى تصبح»، فأي شيء نريده بعد ذلك إذا حفظَنا الله عند نومنا، وأبعد عنا الشياطين؟

ولا يتوقّف أمر الحفظ عند النوم، بل يتجاوزه إلى الحفظ سائر اليوم، ففي الصحيح عنه ﷺ: «**من قرأ بالآيتين من آخر سورة البقرة في ليلة كفتاه**»[2]، وهذا يشمل كل ما يسعى المرء في الاكتفاء به، أو أنها تكفيه ما أهمّه أو كدّر خاطره وأفسد عليه حياته.

كما لا يتوقّف الحفظ عند الدنيا، بل يتجاوزه إلى الآخرة، ففي صحيح مسلم عنه ﷺ أنه قال: «**اقرءوا القرآن فإنه يأتي يوم القيامة شفيعًا لأصحابه، اقرءوا الزهراوين:البقرة وسورة آل عمران؛ فإنهما تأتيان يوم القيامة كأنهما غمامتان أو كأنهما غيايتان، أو كأنهما فرقان من طير صواف تحاجان عن أصحابهما**»[3].

---

(١) البخاري، ح (٢٣١١).
(٢) البخاري، ح (٥٠٥١)، مسلم (٨٠٨)، أبوداود (١٣٩٧)، ابن ماجه (١٣٦٩).
(٣) مسلم، ح (٨٠٤)، أحمد (٢٢١٤٦).

وإذا كان لآية الكرسي وخواتيم البقرة -وهي مفتتح القرآن- تلكم المنزلة، ففي ختامه كذلك، ويتمثل الحفظ في المعوذتين فهما دواء لكل داء حسيّ أو معنويّ بإذن الله تعالى، فعن عائشة رضي الله عنها «**أن رسول الله** صلى الله عليه وسلم **كان إذا اشتكى يقرأ على نفسه بالمعوذات وينفث، فلما اشتد وجعه كنت أقرأ عليه وأمسح بيده رجاء بركتها**»[1].

إن هذه السور والآيات المباركة التي نقرأ بعضها أدبار الصلوات، وبعضها آناء الليل وأطراف النهار في أوراد المسلم اليومية، وبعضها حين نأوي إلى فراشنا، هي محطات قرآنية تنثر السعادة في بيوتنا وقت الفرح والحزن، ووقت الصحة والمرض، ننال بفضلها بركة القرآن، ونعوّد أنفسنا وأولادنا على افتتاح أعمالنا كلها بالقرآن، ونجعله في الموضع اللائق به، ونجعل حياتنا تسير كلها بحفظ الله تعالى.

---

(١) البخاري ح(٥٠١٦)، مسلم (٢١٩٢)، أبو داود(٣٩٠٢)، مالك (٣٤٧١)، أحمد (٢٤٨٣١)، النسائي (٧٤٨٨).



المجلس الخامس عشر

﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡ﴾(١)

إذا دخل أهل الإيمان جنات عدن، وذاقوا لذات السعادة والراحة والأمن، وخلدوا في الجنان في بيوتهم وقصورهم، وغرفهم وخيامهم، مع من صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم، فلبسوا ثياب الحرير والسندس والإستبرق، وتحلوا بأساور اللؤلؤ والفضة والذهب، واتكؤوا على أرائكها في جلسات المؤانسة، وسقاهم ربهم شرابا طهورا، فإنهم حينئذ في حالة من المتعة واللذة، والفرح والسرور، والسعادة والحبور لا يمكن لعقل أن يتصور تجليات تلك الحياة على الحقيقة، ولا لقلب أن يخطر عليه هذا المشهد كما سيكون!

تخيل ما شئت من نعيم الجنة، وعش فيها بقلبك ما تعلمه من وصفها في القرآن والسنة، لكن أعِرني انتباهك لحظة واحدة في موقف من مواقف نعيم الجنة المتكرر، البهي ببهجته وحفاوته.

(١) كتبه: الشيخ مهند بن حسين المعتبي، إمام وخطيب جامع عبدالله بن عباس بجازان.

تخيل معي حين تكون في الجنة مع الأهل والأزواج والذرية في جلسات أنس وبهجة، ثم ترى الملائكة تدخل عليكم من كل باب؛ لتقول لكم: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡ﴾ (الرعد:٢٤) فأي حفاوة ستجده حينها منهم؟!

وتفكر معي كذلك فيما تقوله الملائكة بعد السلام، إنها تقول: ﴿بِمَا صَبَرۡتُمۡ﴾.

﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡ﴾ فثبتم على الإيمان، والتوحيد، حتى الممات.

﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡ﴾ على طاعة الله ابتغاء وجهه، فأقمتم الصلاة، ونهضتم من فرشكم الوثيرة للقيام بين يدي الله، وأخرجتم من أموالكم صدقة وزكاة لله رغم تعلقكم بالمال، وصمتم شهر رمضان وتحملتم الظمأ والجوع والعطش، وقطعتم المسافات لحج بيت الله، وجاهدتم في سبيل الله وهو كره لكم، وأمرتم بالمعروف ونهيتم عن المنكر، واستقمتم على طاعة الله.

﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡ﴾ عن معصية الله ابتغاء وجهه، فهجرتم كل ما زينت لكم أنفسكم مما يغضب ربكم، وآثرتم رضاه على أهوائكم.

﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡ﴾ على ما أصابكم من أقدار الله ابتغاء وجهه، فصبرتم على فقد أحبابكم، وضياع أموالكم، وآلام أمراضكم، وكل ما تكرهون مما أصابكم.

إنه الصبر.. المفتاح العظيم لدخول الجنة بعد التوحيد..

إنه الزاد الذي يغذي السائر حتى يصل..

إنه الوقود العظيم الذي لا يقطع بالمسافر أبدا..

والصبر في القرآن في أكثر من تسعين موضعا! بل الإيمان نصفان؛ نصف صبر، ونصف شكر -كما قاله بعض السلف-، وقرره ابن القيم وابن تيمية عليهما رحمة الله، وقد قرن الله بينهما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ (إبراهيم: ٥).

فبالصبر تحقق الفلاح ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (آل عمران: ٢٠٠).

وبالصبر تظفر بمعية الله ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ (البقرة: ١٥٣).

وبالصبر تنال البشارة الإلهية، والصلوات الربانية، والرحمة القدسية: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (١٥٥) الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (١٥٦) أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾ (البقرة: ١٥٥ - ١٥٧).

وبالصبر توفى أجرك بغير حساب ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ (الزمر: ١٠).

وبالصبر تفوز بمحبة الله ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ (آل عمران: ١٤٦).

وبالصبر تحظى بالمغفرة والأجر الكبير ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٞ﴾ (هود: ١١).

وفضائل الصبر كثيرة، بل أكثر الصفات الحميدة ترجع إلى الصبر، كالعفة؛ فهي صبر عن شهوة الفرج، وكالحلم؛ فهو صبر عن إجابة داعي الغضب، وكالزهد؛ فهو صبر عن فضول العيش، وكالجود؛ فهو صبر عن إجابة داعي الإمساك والبخل.

وإن أردت كتابا لتستعين به على تدبر القرآن في آيات الصبر؛ فمتع ناظريك بكتاب (عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين) لابن القيم رحمه الله.



المجلس السادس عشر

﴿مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لِتَشۡقَىٰٓ﴾[1]

مما جبل الله عليه النفوس: التعلق بمتع الدنيا وملذاتها، كما قال تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلۡبَنِينَ وَٱلۡقَنَٰطِيرِ ٱلۡمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلۡفِضَّةِ وَٱلۡخَيۡلِ ٱلۡمُسَوَّمَةِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ وَٱلۡحَرۡثِۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلۡمَـَٔابِ﴾(آل عمران: ١٤)، والملاحظ أن هذه المُتعَ الدنيوية سريعةُ الفناء، كثيرة العَنَاء، وهي مما تتعلق به قلوب الناس وتميل إليه نفوسهم، فمن صرف قصده إليها صارت شقاءً عليه ووبالًا في دنياه وأخراه، ومن عرف حقيقتها فاستعملها فيما يقربه لربه وعمل صالحًا سعد في دنياه وأخراه، وتلك هي السعادة الحقيقية وما منا أحد إلا وهو يبحث عن السعادة ويطلبها في مظانها، وقد بينها القرآن كأحسن مايكون البيان.

---

(١) كتبه: د.عبدالله بن منصور الغفيلي، عضو هيئة التدريس في المعهد العالي للقضاء.

قال ابن القيم رحمه الله: «وقد جعل اللهُ الحياةَ الطيبةَ لأهل معرفته ومحبته وعبادته، فقال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ (النحل:٩٧)، وقد فُسِّرت الحياة الطيبة بالقناعة والرضى، والرزق الحسن وغير ذلك، والصواب: أنها حياة القلب ونعيمه وبهجته، وسروره بالإيمان، ومعرفة الله، ومحبته، والإنابة إليه، والتوكل عليه؛ فإنه لا حياة أطيب من حياة صاحبها، ولا نعيم فوق نعيمه إلا نعيم الجنة»[1].

وإنك لن تجد دليلا للسعادة ولا مرشدا لها كما هو القرآن، فهو كلام من خلق الخلق سبحانه وهو أعرف بهم فهو يهديهم ويسعدهم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ (الإسراء:٩) فكل حياة تعرض عنه فهي معوجة وضنك، قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ﴾(طه:١٢٤)؛ ولذلك جمع القرآن مالم يجمع غيره من أوصاف السعادة كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾(يونس:٥٧) فليس من مؤمن إلا وهو يبحث عن تلك الأوصاف الأربع فهي إكسير الحياة الطيبة، وهي الموجبة للفرح والسرور

---

(١) مدارج السالكين (٣/ ٢٤٣).

لا غيرها كما قال تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾(يونس: ٥٨) فبها تكون الغبطة والسعادة لا بدنيا زائلة ومتع فانية.

وإن العبد كلما كان عظيم العناية بالقرآن تلاوة، وحفظا، ومذاكرة، وتدبرا، وعملا وتطبيقا؛ نال من السعادة، والطمأنينة، وراحة الصدر، وزوال الهم والغم والحزن بحسب ذلك؛ ولهذا كان من دعائه عليه السلام: «**أن تجعل القرآن ربيع قلبي، ونور صدري، وجلاء حزني، وذهاب همي**»[1].

قال ابن القيم: «في القلب شعث لا يلمه إلا الإقبال على الله، وفيه وحشة لا يزيلها إلا الأنس بالله، وفيه حزن لا يذهبه إلا السرور بمعرفته، وصدق معاملته، وفيه قلق لا يسكنه إلا الاجتماع عليه والفرار إليه، وفيه نيران حسرات لا يطفئها إلا الرضا بأمره ونهيه وقضائه ومعانقة الصبر على ذلك إلى وقت لقائه، وفيه فاقة لا يسدها إلا محبته والإنابة إليه ودوام ذكره وصدق الإخلاص له، ولو أعطي الدنيا وما فيها لم تسد تلك الفاقة أبدا».[2]

ولست أرى السعادة جمع المال ... ولكن التقي هو السعيد
وتقوى الله خير الزاد ذخرًا ... وعند الله للأتقى مزيد

(١) أحمد ح (٢٤٧)، ابن أبي شيبة (٣٢٩).
(٢) مدارج السالكين (٣/ ١٥٦).

فافتح قلبك لكتاب ربك وتدبر كلامه؛ فثم الجنة في الدنيا والآخرة، وحذار من أن يكون القرآن سببا في خسارتك بإعراضك عن العمل به كما قال تعالى: ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّـٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴾ (الإسراء: ٨٢).

فيا لخيبة المحرومين من الأنس بكلام رب العالمين! ويا لظلام المستنيرين بغير النور المبين والصراط المستقيم! فأسعد بتلك النعمة التي حرمها الكثيرون وقد اختصك الله بها ولولا فضله سبحانه لكنا في شقاء ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَـٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَـٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ﴾ (الأنعام: ١٢٢) ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَـٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَـٰنُ وَلَـٰكِن جَعَلْنَـٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾(الشورى: ٥٢). اللهم اجعلنا منهم.



المبادرات في القرآن الكريم(١)

المتدبر للقرآن الكريم والسنة النبوية يلحظ العناية الكبرى في إعداد الأمة وتربيتها على خلق المبادرة، فبالمبادرة للخير يتحقق رضا الله ﷻ: ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ﴾ (طـه: ٨٤)، وبالمبادرة تفتح لك أبواب الجنان: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (آل عمران:١٣٣).

ونجد أن القرآن يحث على المبادرة ويبين الفرق العظيم بين من بادر وبين من سوَّف وأجَّل ﴿لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُواْ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُواْ﴾ (الحديد: من الآية١٠)، بل إن من صفات المنافقين التسويف والتثاقل وعدم المبادرة ﴿وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ﴾ (النساء: من الآية١٤٢) والسنة مليئة بالنصوص التي تحث على المبادرة والمسارعة إلى فعل الخير.

(١) كتبه: أ.د. ناصر بن سليمان العمر، رئيس مجلس أمناء الهيئة العالمية لتدبر القرآن الكريم، والمشرف العام على مؤسسة ديوان المسلم.

وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه الصحيح: «**لو يعلم الناس ما في النداء والصف الأول، ثم لم يجدوا إلا أن يستهموا عليه لاستهموا**».[١]

بل إن النبي صلى الله عليه وسلم يعلمنا كيف نتقي الفتن، وذلك كما في صحيح مسلم قال: «**بادروا بالأعمال فتنا كقطع الليل المظلم يصبح الرجل مؤمنا ويمسي كافرا أو يمسي مؤمنا ويصبح كافرا يبيع دينه بعرض من الدنيا**»[٢].

وعند مسلم[٣] من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: «**لايزال قوم يتأخرون حتى يؤخرهم الله في النار**».

ويربينا صلى الله عليه وسلم على التبكير في الأعمال عامة، دينا ودنيا، وذلك بالدعاء لكل مبكر ومبادر، كما عند أبي داود[٤] من حديث صخر الغامدي رضي الله عنه قال صلى الله عليه وسلم: «**اللهم بارك لأمتي في بكورها**».

ولقد فزع أهل المدينة ذات ليلة فانطلق ناس قبل الصوت فتلقاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم راجعا وقد سبقهم إلى الصوت[٥].

(١) رواه البخاري ح(٦١٥).
(٢) ح(١١٨).
(٣) ح (٤٣٨).
(٤) ح (٢٦٠٨).
(٥) متفق عليه، مسلم (٢٣٠٧)، البخاري (٦٠٣٣).

ومبادرات الأنبياء -عليهم السلام- الذين أمر الله بالاقتداء بهم مسطرة بالكتاب والسنة ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًاۖ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ﴾ (الأنعام: ٩٠).

ومن أعظم مبادرات الأنبياء: مبادرة خليل الرحمن بتحطيم الأصنام، ومن مبادراته هجرته إلى ربه وذبحه لإسماعيل وإكرام الضيوف.

إلى مبادرات عظيمة في قصة موسى عليه السلام كما في القرآن، حيث ذكر الله عددًا من المبادرات ومنها سقيه الغنم للفتاتين ومافتح الله عليه بسبب ذلك من خير عظيم.

أما مبادرات الصحابة فيصعب حصرها هنا، وأكتفي بقدوتين:

فمبادرات أبي بكر رضي الله عنه سارت بها الركبان كما في حديث «**من أصبح منكم اليوم صائما**»[(١)].

ومبادرات عمر رضي الله عنه كثيرة جدًا: فهو أول من كتب تاريخ الهجرة، وأول من جمع الناس على التراويح، وأول من دوَّن الدواوين.

ومبادرات النساء مسطورة مشهورة كما بادرت أم كلثوم بنت عقبة بن معيط رضي الله عنها في الهجرة إلى المدينة، ومبادرة أم حرام في غزوها مع زوجها رضي الله عنها وخوض غمار البحر، وقد قال لها النبي صلى الله عليه وسلم «**أنتِ من الأولين**».[(٢)]

(١) مسلم ح (١٠٢٨)،النسائي (٨٠٥٣).

(٢) البخاري ح(٢٧٨٨)، مسلم (١٩١٢)، أبو داود(٢٤٩٠)، الترمذي(١٦٤٥)، النسائي (٣١٧١)، ابن ماجه (٢٧٧٦).



ومن أعظم ما يربي النفس على المبادرة مراعاة هذه الصفات:

الصدق والإخلاص فهو يبث في الروح قوة ويقينًا.

تدبر القرآن والوقوف مع آياته في المبادرة والمسارعة.

الاقتداء بسير الأنبياء والمرسلين وخير القرون.

العمل الجماعي والتعاون على البر والتقوى.

أخذ الأمور بجدية وقوة.

اليقين بحسن جزاء المبادرين.

التفاؤل وعدم اليأس مهما طال الزمن.

الصبر والتحمل والبعد عن العجلة قبل آوان الأمر ونضوجه.

الدعاء والاستغفار واللجوء إلى الله.

وبعد: فأمتنا تنتظر منا أن نكون من المبادرين في أمور الدين والدنيا لنحميها من عدوها، ونجعل لها المهابة والقوة كما كان سلفنا الصالح، وأن نستغني عن أعدائنا.



المجلس الثامن عشر

﴿ فَسَقَىٰ لَهُمَا ﴾[1]

سنتحدث في هذا المجلس عن بعض مواضع العبرة والعظة في قوله تعالى: ﴿ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴾ (القصص: ٢٤).

إن هذه الآية تكشف لنا خلقين عظيمين تخلّق بهما الأنبياء الكرام، ومنهم موسى عليه السلام ألا وهما: نفع الناس والتواضع، ومن جمَع هذين الخلقين، فقد بلغ في محاسن الأخلاق شيئًا عظيمًا.

يظهر الخلق الأول في قوله تعالى: ﴿ فَسَقَىٰ لَهُمَا ﴾ حيث بادر موسى عليه السلام إلى فعل الخير يوم لاح له رغم ما أصابه من تعب ونصب وخوف، فبمجرد رؤية المرأتين تنتظران حتى انصراف الرِّعاء؛ سقى لهما، دون

(١) كتبه: أ. د. عويض بن حمود العطوي، وكيل الدراسات العليا بجامعة تبوك.

معرفة سابقة ولم يطلب مقابلًا؛ ولذا عتب عليه الخضر -على ما ذكر- يوم قال في شأن القرية التي استطعما أهلها: ﴿لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ (الكهف: ٧٧)؛ تذكيرًا له عليه السلام بفعل الخير دون مقابل وهو ما اعتاد فعله من قبل.

﴿ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ﴾ بعد فعل المعروف تنحى بعيدًا؛ لأنه لا ينتظر جزاءً ولا شكورًا من أحد، وحتى لا يحرج من بذل له المعروف ابتعد عنه، كما أن ذلك يدل على تعبه ونصبه من رحلة المطاردة والخوف، ولبذل المعروف في مثل هذه الظروف شأن مختلف، فقد يعجب الإنسان فيها بنفسه وبفعله، ولكن موسى عليه السلام ناجى ربه في تلك اللحظة فقال: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾، وهنا يظهر التواضع لصاحب الفضل وهو رب العالمين سبحانه وتعالى، فلم يحمله هذا العمل -وهو مساعدة المرأتين والقوة التي أعطاه الله إياها- على أن يتفاخر بنفسه ولا أن يعجب بها، بل أقرّ بفضل الله عليه، وفقره إلى خالقه جلت قدرته.

ونلحظ الاستكانة والخضوع في المناداة: ﴿رَبِّ﴾ ولم تذكر معها (يا)؛ للإشارة إلى قرب المنادى جلت قدرته، وللإشعار بإسرار ذلك الدعاء، وذكر اسم الرب هنا لأن الموقف موقف إعانة ورعاية، وقدم ﴿لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ﴾ على ﴿فَقِيرٌ﴾ دون أن يُقال: إني فقير لما أنزلت إليّ؛ لاهتمامه بما أُنزل عليه من خير أكثر من اهتمامه بفقره، ودخول ﴿مِنْ﴾ على ﴿خَيْرٍ﴾ للإشعار بأن أي جزء من الخير منه سبحانه وتعالى فهو عظيم عنده عليه السلام.

والتعبير بالفقر عن حاجته للخير من ربه ﴿إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ دون أن يقول مثلًا: إني محتاج؛ لأن الفقر أعظم صور الحاجة، وفيه إشارة إلى أن الفقر لا يكون في المال فحسب، بل يكون في غيره أيضًا، وأن منه ما هو ممدوح، وهو: كل فقر إلى الله في أي صورة كان.

يقول البقاعي: «وفي القصة ترغيب في الخير، وحث على المعاونة على البر، وبعث على بذل المعروف مع الجهد»[1].

(١) نظم الدرر للبقاعي (٦/ ١٧٢).



إن تقديم المعروف وخدمة الناس ونفعهم لا يعرف ظروفًا تُثني العزائم، بل يعرف قلوبًا تواقة إلى الثواب، لقد لحق النَّصَب والتعب والخوف به عليه السلام، لكنه نسي نفسه في تلك اللحظة وقدم العون لمن يحتاجه، يا لها من نفوس! وما أعظمهما من قلوب!

لقد فعل عليه السلام الخير، وطلب من الله الخير، وهكذا من أراد فضل الله، فليطلبه في نفع الناس؛ فالله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه.



المجلس التاسع عشر

﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسۡتُنَّ كَأَحَدٖ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ (١)

عندما تدرك المرأة المسلمة المؤمنة بالله وبرسوله ﷺ سِرَّ تميزها تستعلي بدينها وبإيمانها على كل شيء، وتشعر بالفخر والاعتزاز أنها مؤمنة؛ ولذلك خاطب الله نساء النبي ﷺ بخطابٍ يوقظ في نفوسهن سر التميز الحقيقي وهو إيمانهن وكونهن زوجات النبي ﷺ فقال: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسۡتُنَّ كَأَحَدٖ مِّنَ ٱلنِّسَآءِۚ إِنِ ٱتَّقَيۡتُنَّ فَلَا تَخۡضَعۡنَ بِٱلۡقَوۡلِ فَيَطۡمَعَ ٱلَّذِي فِي قَلۡبِهِۦ مَرَضٞ وَقُلۡنَ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا ٣٢﴾ (الأحزاب:٣٢) وهذا التميز الذي اختص الله به نساءَ النبي ﷺ، ولم يشاركهنَّ فيه غيرُهُنَّ من المؤمنات، إلا أَنَّهنَّ يشاركنهن في الإيمان بذلك الزوج العظيم والنبي الكريم، كما يشاركنهنَّ في الاهتداء بهديه والاقتداء به.

---

(١) كتبه: د. عبدالرحمن بن معاضة الشهري، أستاذ القرآن وعلومه المشارك بجامعة الملك سعود، عضو الهيئة العالمية لتدبر القرآن الكريم، ومدير عام مركز تفسير للدراسات القرآنية.

إنَّ الله في هذه الآية التي وردت في سياق عدة آيات عظيمة في سورة الأحزاب (من الآية الثامنة والعشرين حتى الخامسة والثلاثين) يؤكد فيها على أنَّ أمهات المؤمنين وزوجات النبي ﷺ هنَّ الأسوة الحسنة للمؤمنات، وقد جاء في مناسبة نزول الآيات عمومًا(١)، ونزول أولها خصوصًا(٢) ما يفهم منها أن النبي ﷺ بعد أن نصره الله في غزوة الأحزاب، ويهود بني قريظة، وأصبحت راية الإسلام هي الأولى في جزيرة العرب، رغب زوجات النبي ﷺ أن يكون لهنَّ حظهنَّ من الدنيا على غرار بنات كسرى وقيصر اللاتي كنَّ في الحُليِّ والحُلَلِ والخَدَمِ، ولم يكن في بيوت النبي ﷺ شيء من حطام الدنيا، ولم يكن عليه السلام يدخر شيئًا.

وروي أن أزواجه ﷺ كنَّ قد تغايرن عليه فهجرهن شهرًا(٣) أو تسعًا وعشرين يومًا(٤)، ثم نزل التخيير لهنَّ من الله تعالى، فاخترن الله تعالى ورسوله ﷺ والدار الآخرة وتركن الحياة الدنيا وزينتها -رضي الله تعالى عنهن وأرضاهن-.

---

(١) ينظر: البحر المحيط في التفسير لأبي حيان (٧/ ٢٢٧).
(٢) ينظر: فتح الباري لابن حجر (٨/ ٥١٩-٥٢٠) ح(٤٧٨٥)و (٤٧٨٦).
(٣) ينظر: تفسير الطبري (٢١/ ١٠٠).
(٤) ينظر: تفسير القرطبي (١٧/ ١٣٩).

إنَّ قوله تعالى: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسۡتُنَّ كَأَحَدٖ مِّنَ ٱلنِّسَآءِۚ إِنِ ٱتَّقَيۡتُنَّ فَلَا تَخۡضَعۡنَ بِٱلۡقَوۡلِ فَيَطۡمَعَ ٱلَّذِي فِي قَلۡبِهِۦ مَرَضٞ وَقُلۡنَ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا﴾ رسالةٌ عظيمةٌ للمسلمة يجب أن تتأملها وتتدبرها، فإنها وإن كانت موجهةً لنساء النبي ﷺ خصوصًا، فإن نساء المؤمنين مخاطبات أيضًا بهذه الآية، وينبغي على المؤمنة أن تعلم أنها ليست كأي امرأةٍ في العالم، بل هي متميزةٌ بإيمانها ودينها وعقيدتها وقدواتها وأهدافها وأخلاقها وطموحاتها، وينبغي لها أن تتخذ من أمهات المؤمنين -الصادقات المخلصات المصدقات الخاضعات لأحكام الشريعة، المختارات لله ولرسوله ولدينه ولأوامره على أي أمرٍ غيرها، والمقدِّمات لأوامر الشريعة على حظوظ أنفسهنَّ- قدوةً تقتدي بهنَّ وبسيرتهنَّ وبصبرهنَّ.

وفي هذه الآية خصوصًا ينبه الله نساء النبي ﷺ على حرمة التكسر في الكلام أثناء مخاطبة الرجال الأجانب حتى لا يطمع من في قلبه مرض، وهذا تعظيمٌ للعفاف في القول والخطاب، ولا شك أن نساء المؤمنين أولى بهذا الخطاب من نساء النبي ﷺ لما في نساء النبي ﷺ من التقوى والقرب من بيت النبوة، ولكنه منهج القرآن في التربية، والحث على الفضائل، فعندما يوجه الخطاب لأصحاب الكمالات الأخلاقية من الأنبياء وأزواجهم، فإنه يخاطب بذلك أيضًا أتباع هؤلاء الأنبياء من المؤمنين والمؤمنات.

إنَّ المسلمات اليوم أحوج للعودة إلى القرآن، وتأمل خطاب الله للمؤمنات خصوصًا في الآداب والأخلاق التي تخصهن من أي وقتٍ مضى؛ حتى يقدرن على التصدي لطوفان الغزو الفكري، والمادي الرهيب الموجه للمرأة المسلمة بكل وسائل الإعلام المتاحة، وهذا يلقي بالمسئولية على المرأة أولًا، وعلى أولياء الأمور ثانيًا أن يتقين الله تعالى في المحافظة على النساء المؤمنات من هذا الغزو، ويصبر الجميع على أوامر الله ونواهيه في المحافظة على المجتمع المسلم بالتربية على القرآن وأوامره وهداياته، وانتهاز المواسم القرآنية كرمضان وغيره للعيش مع القرآن، وربط النساء بالقرآن، وتربيتهن على حفظه والعمل به، والتخلق بأخلاقه، والتركيز على هداياته، لعل الله أن يحفظ أسرنا وبناتنا من كيد الكائدين، ومن أصحاب الشهوات الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون.



المجلس العشرون

﴿ وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ ﴾[1]

الدعوة إلى الله تعالى من أشرف المقامات التي يوفق الله لها من شاء من عباده؛ فالداعية متقلد لوظيفة الأنبياء، ومتشبه بهم وتابع لهم، قال تعالى عن نبيه ﷺ ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾(الأحزاب:٤٥)، وقال ﷺ: «**من دعا إلى هدى، كان له من الأجر مثل أجور من تبعه، لا ينقص ذلك من أجورهم شيئا**»[2].

ومن النماذج الرائعة في الدعوة إلى الله تعالى: ما قصّه الله تعالى في سورة يس، تلك القصة التي عرفت عند المفسرين بقصة حبيب النجار، وهي قصة تستحق التوقف عندها وأخذ العبر منها.

وملخص القصة: أن الله تعالى بعث إلى مدينة أنطاكية رسولين، فكذبهم قومهم فأيدهم الله بثالث، وحصلت بينهم محاورات كثيرة لدعوتهم فكانوا

---

(١) كتبه: د. عبدالمحسن بن زبن المطيري، الأستاذ بكلية الشريعة بالكويت، عضو الهيئة العالمية لتدبر القرآن الكريم، وأمين عام رابطة علماء المسلمين.

(٢) مسلم ح(٢٦٧٤).



لا يزدادون إلا عنادا واستكبارا، وهنا جاء دور صاحبنا حبيب، **حيث قام بعدة أمور مهمة:**

١) المبادرة بالدعوة والمشاركة بنفسه، فلم يقل حبيب: إن هذه المدينة فيها ثلاثة رسل فهي لا تحتاجني، بل بادر.

ومن هنا ينبغي لكل مسلم المشاركة في الدعوة بحسب قدرته، ولا يقصّر بحجة وجود العلماء، فيترك الدعوة، فلو كان هذا عذرا لأحد لكان حبيبٌ أولى الناس به.

٢) حبيب وظيفته النجارة، فهو لا مال له ولا جاه، ومع هذا لم يمنعه ذلك من الدعوة، فلا تقل: من أنا حتى أدعو، وكن كحبيب.

٣) حبيب مشغول بالنجارة وليس بطلب العلم، والمدينةُ فيها علماء بل رسل، ومع هذا شارك في الدعوة.

٤) منزل حبيب في أقصى المدينة، كما في الآية الكريمة: ﴿ وَجَآءَ مِنۡ أَقۡصَا ٱلۡمَدِينَةِ ﴾ والعادة أنه لا يسكن في الأطراف إلا الفقراء؛ لعجزهم عن شراء عقار في منتصف المدنية، فلم يمنع حبيبًا فقره، ولا بُعْدُ مكانِه من المشاركة في الدعوة إلى الله تعالى.

٥) لنتأمل في قوله تعالى: ﴿ رَجُلٌ ﴾ فلم يذكر الله سبحانه وتعالى اسمه لكنه ذكر قوله وفعله، فليس المهم من أنت، إنما المهم ماذا قدمت؟.

٦) وصف الله مبادرته بقوله: ﴿يَسْعَىٰ﴾ أي: يجري، فهو يخشى أن يفوته الأجر، وفعل ذلك حرصًا على هداية الناس؛ فكل تأخير قد يكون فيها تمكين للباطل وبُعْدٌ عن الحق، فاحرص على المبادرة عند رؤية المنكرات، حتى لا تكون واقعًا يصعب اقتلاعه.

٧) ﴿قَالَ يَـٰقَوْمِ﴾ فنسبهم لنفسه لتحبيبهم والتلطف معهم، وكأنه يقول: أنا منكم وأحب لكم ما أحب لنفسي.

٨) ﴿ٱتَّبِعُواْ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ طلب منهم اتباع من يستحق المتابعة، ولم يدعهم لنفسه ولمكاسب شخصية.

٩) ﴿ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ (يس:٢٢)فبدأ يذكر لهم أدلة كونهم مرسلين وأنهم صادقون، فالدليل الأول: أنهم لا يريدون مصلحة دنيوية من هذه الدعوة، والدليل الثاني: أنهم مهتدون صالحون، فأفعالهم تدل على أقوالهم، وصلاحهم يدل على هدايتهم ونصحهم، فهم يقولون ما يفعلون، وصالحون يوفقون للحق.

١٠) ﴿وَمَا لِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۝٢٢ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَـٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَـٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ﴾(يس:٢٢-٢٣) فهو بعد أن ذكر أدلة صدق الرسل، بدأ بذكر أدلة صدق رسالتهم في الدعوة للتوحيد، فالدليل الأول: أن الخالق هو المستحق

للعبادة، الثاني: أننا سنرجع إليه فكيف سنعصيه، الدليل الثالث: أن من يُعبد من دون الله لا يستطيع أن يرد ما يقدره الرحمن.

١١) ﴿إِنِّي آمَنتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ﴾(يس:٢٥) أي: أنا أولكم التزاما بما أدعو إليه، فاسمعوا لي واستجيبوا.

١٢) فكانت نتيجة هذا الحوار والشفقة والدعوة أن قتلوه حتى خرجت أمعاؤه، ولكن كانت مكافأته عظيمة ﴿قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ﴾(يس:٢٦).

١٣) ومن شفقة هذا الداعية الناصح: أنه حتى بعد موته لا زال يحمل هم أمته ﴿يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ (٢٦) بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ﴾(يس:٢٦-٢٧)، ونستفيد من هذا أن الدعوة سبب لدخول الجنة، وسبب للمغفرة والكرامة.

١٤) ﴿وَمَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِ مِن بَعْدِهِ مِن جُندٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ﴾(يس:٢٨) من عجيب هذه الآية أن الله تعالى نسب القوم له ولم ينسبهم للرسل الثلاثة، وكأن الآية تشير أن الانتقام من هؤلاء كان نصرة لهذا الداعية الناصح.



المجلس الحادي والعشرون

﴿لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ﴾ [1]

نتفيأ في هذا المجلس بعض ظلال قوله تعالى: ﴿لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ﴾(الصافات: ٦١).

فإن في هذه الآية إشارةٌ إلى نعيم الجنة، ومفهومه أن لا ينشغل الناس بالدنيا، ومن تأمل واقع كثير من الناس، وجدهم وكأنهم لا يعملون إلا للدنيا، والله تعالى يريدهم أن يعملوا للجنة.

ومتاع الدنيا واقع مشهود، ونعيم الجنة غيب موعود، والناس يتأثرون بما يرون ويشاهدون، ويثقل على قلوبهم ترك ما بين أيديهم إلى شيء ينالونه في الزمن الآتي، فكيف إذا كان الموعد يُنال غب الموت؛ من أجل ذلك قارن الله -تبارك وتعالى- بين متاع الدنيا ونعيم الجنة، وبين أن نعيم الجنة خير من الدنيا وأفضل، وأطال في ذم الدنيا وبيان فضل الآخرة؛ وما ذلك إلا ليجتهد العباد في طلب الآخرة ونيل نعيمها.

---

(١) كتبه: د. عبدالمحسن بن زبن المطيري، الأستاذ بكلية الشريعة بالكويت، عضو الهيئة العالمية لتدبر القرآن الكريم، وأمين عام رابطة علماء المسلمين.

ولو ذهبنا نبحث في سر أفضلية نعيم الآخرة على متاع الدنيا، **لوجدنا من وجوه متعددة:**

الأول: متاع الدنيا قليل جدا بالنسبة للآخرة، قال تعالى: ﴿قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ﴾ (النساء:٧٧)، وقد صور لنا الرسول ﷺ قلة متاع الدنيا بالنسبة إلى نعيم الآخرة بمثال ضربه فقال: «**واللهّ ما الدُّنْيا في الْآخرة إلّا مثْلُ ما يجْعلُ أحدُكُمْ إصْبعهُ هذه وأشار يحْيى بالسّبّابة في الْيمّ فلْينْظُرْ بم ترْجعُ**»[١]،ما الذي تأخذه الإصبع إذا غمست في البحر الخضم؟ إنها لا تأخذ منه قطرة، هذا هو نسبة الدنيا إلى الآخرة.

الثاني: هو أفضل من حيث النوع، فثياب أهل الجنة وطعامهم وشرابهم وحليهم وقصورهم أفضل مما في الدنيا ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا﴾(الإنسان:٢٠)، بل لا وجه للمقارنة، فإن موضع سوط في الجنة خير من الدنيا وما فيها، فعن سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**موضع سوط في الجنة خير من الدنيا وما فيها**»[٢]، وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**لقاب قوس في الجنة خير مما تطلع عليه الشمس وتغرب وقال لغدوة أو روحة في سبيل الله خير مما تطلع عليه الشمس وتغرب**»[٣].

---

(١) أخرجه مسلم (٢٨٥٨).
(٢) أخرجه البخاري (٣٠٧٨).
(٣) أخرجه البخاري (٢٦٤٠).

الثالث: الجنة خالية من شوائب الدنيا وكدرها، فطعام أهل الدنيا وشرابهم يلزم منه الغائط والبول، والروائح الكريهة، وإذا شرب المرء خمر الدنيا فقد عقله، ونساء الدنيا يحضن ويلدن، والحيض أذى، والجنة خالية من ذلك كله، فأهلها لا يبولون ولا يتغوطون، ولا يبصقون ولا يتفلون، وخمر الجنة كما وصفها خالقها ﴿بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٤٦﴾ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ﴾ (الصافات:٤٦، ٤٧) وماء الجنة لا يأسن، ولبنها لا يتغير طعمه ﴿أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ﴾(محمد:١٥)، ونساء أهل الجنة مطهرات من الحيض والنفاس وكل قاذورات نساء الدنيا، كما قال تعالى: ﴿وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾(البقرة:٢٥).

الرابع: نعيم الدنيا زائل، ونعيم الآخرة باق دائم ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ (العنكبوت:٦٤)؛ ولذلك سمى الله -تبارك وتعالى- ما زين للناس من زهرة الدنيا متاعا؛ لأنه يتمتع به ثم يزول، أما نعيم الآخرة فهو باق، ليس له نفاد ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ﴾(النحل:٩٦)، ﴿إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ﴾ (ص:٥٤) ﴿أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا﴾(الرعد:١٣) ﴿لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾(الحجر:٤٨).

الخامس: العمل لمتاع الدنيا ونسيان الآخرة، يعقبه الحسرة والندامة ودخول النيران، ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾(آل عمران:١٨٥)، وأما العمل للآخرة فلا يعقبه إلا الفوز بها [١].

(١) ينظر: الجنة والنار، للأشقر (ص:٢٢٣) بتصرف.



المجلس الثاني والعشرون

﴿إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾[1]

حين يكون الحديث عن خليل الرحمن ومن خلال القرآن، فإنه حديث يأخذ بالألباب، ومجلسٌ كهذا لا يُراد منه الإحاطة بحديث القرآن عنه، ولكن هي إشارة إلى آية واحدة فقط، جاءت ضمن تزكية الله له بقوله: ﴿إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾(الصافات:٨٤)، وهنا ينبغي لقارئ القرآن أن يطرح السؤال التالي: ما القلب السليم؟ الذي أثنى الله به على خليله إبراهيم؟

وأقرب ما قيل في ذلك ما ذكره ابن القيم رحمه الله حين قال: «هو الذي قد سَلِم من كل شهوة تخالف أمر الله ونهيه، ومن كل شبهة تعارض خبره، فسلِم من عبودية ما سواه، وسلم من تحكيم غير رسوله، فسلم في محبة الله مع تحكيمه لرسوله، في خوفه ورجائه، والتوكل عليه، والإنابة إليه، والذل له، وإيثار مرضاته في كل حال، والتباعد من سخطه بكل طريق»[2].

---

(١) كتبه: أ.د. ناصر بن سليمان العمر، رئيس مجلس أمناء الهيئة العالمية لتدبر القرآن الكريم، والمشرف العام على مؤسسة ديوان المسلم.

(٢) إغاثة اللهفان (ص: ٧).

وإبراهيم عليه السلام الذي جعله الله إمامًا كان نقيّ السريرة، سليم القلب، شهد الله له بذلك: ﴿إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ (الصافات:٨٤)، ولا شكّ أن إبراهيم عليه السلام الذي رأينا بعض صفاته وأفعاله وبلاءه، لا شكّ أنه يحمل قلبًا سليمًا خَيِّرًا.

لم ينقل عنه أنه دعا على أحد من أعدائه، برغم الأذى الذي ناله، بل المنقول دعاؤه لهم: ﴿وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (إبراهيم:٣٦)، أما دعاؤه للمؤمنين فما أكثره في القرآن والسنة، ودعاؤه لأهل مكة بالبركة مشهور معروف، حتى إننا نرى أثره اليوم.

ومما يظهر سلامة قلبه عليه السلام دعاؤه لأبيه حتى تبيّن له أنّه عدوٌّ لله، فلمّا تبيّن أنّه عدوٌّ لله تبرّأ منه.

ومن تأمل سيرته وجد سلامة قلبه عليه السلام في حواراته ومناقشاته وبُعْده عن حَظِّ النَّفس، فقد كان يدرك عليه السلام ما لسلامة القلب من الأثر، بل كان ذلك همه؛ ولهذا لمّا دعا قال: ﴿وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾(الشعراء:٨٧ – ٨٩)، وكلنا نحتاج إلى ذلك يوم لا ينفع مالٌ ولا بنون إلّا من أتى الله بقلبٍ سليم، فيا معاشر الدعاة

والمربّين! ربوا الأجيال على طهارة القلوب وسلامتها من أدوائها، من الغل والحسد والبغي حتى على الخصوم! وأقول: بعض المنتسبين إلى الدعوة والعلم -هداهم الله- يربون أجيالًا على الحقد والبغض، يلوثون قلوب الناشئة ببغض علمائهم ودعاة الإسلام الذين بين أظهرهم، فليتهم يسيرون مع إخوانهم من المسلمين بسيرة إبراهيم مع أعدائه! لم يُؤْثَر عنه عليه السلام أنه دعا على أحدٍ من قومه، بل تجد منه الدُّعاء بالهداية، والرغبة في استقامتهم، تجد عِفّة اللسان، تجد الحكمة.

فانظر إلى قلبك أخا الإسلام! فأنت وحدك دون الناس من يبصره! قد ينظر الناس إلى هيئتِك، إلى عملك، إلى تصرّفاتك، إلى سلوكك، لكنهم لا يرون ما انطوى عليه قلبك، فانظر أنت إلى قلبك وفتشه، هل فيه غِش؟ هل فيه حِقد؟ هل فيه مرض؟ قبل أن يجيء العرض على ربك الذي لا تخفى عليه خافية ﴿يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ﴾(الطارق:٩) هناك ﴿وَحُصِّلَ مَا فِى ٱلصُّدُورِ﴾ (العاديات:١٠).

واعلم أنَّ سلامة القلب غُنم لك في العاجل والآجل، ولقد رأيتُ عددًا من النَّاس ممن عرفوا بمسامحة الناس وسلامة الصدر، رأيتهم يعيشون في راحة بالٍ وسعادةٍ وهناء.

والمقصود فتش قلبك، وانظر حالك، وحذارِ حذارِ من أن تنطوي نفسك على الحِقد والغِل والحسد وأمراض القلب وأدوائها، فإنها قد تقضي على صاحبها في الدنيا، فما بالك في الآخرة؟ ولن ينجو في الآخرة إلّا من أتى الله بقلبٍ سليم، أسأل الله أن يجعلني وإياكم منهم.



المجلس الثالث والعشرون

من ﴿لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ إلى ﴿وَلِيُنذَرُواْ بِهِۦ﴾ إلى ﴿فَٱتَّبِعُوهُ﴾[1]

حين يصدر الحديث عن أثر تدبر القرآن في إصلاح أحوال الأمة، عن عالم عاصر ألوانًا من التقلبات التي مرّت بها، والمحن التي ألّمت بها؛ فإنه سيكون حديثًا مؤثرًا، وهكذا كان حديث العلامة الشيخ البشير الإبراهيمي رحمه الله المتوفى سنة (١٣٨٥هـ)، وهو أحد كبار المصلحين المعاصرين، حيث يقول:

إن حقوق القرآن علينا من التدبر والاتباع، هي التي يعروها ما يعروها من الإهمال والضياع والتفريط والغفلة، فهي التي يجب التنبيه لها والتذكير بها دائما والدلالة على مواقعها من آيات الكتاب العزيز، وهي التي يجب على العالِم القرآني أن يختار للتذكير بها أصرح الآيات في معناها وأظهر الجمل في الدلالة عليها وأقرب الألفاظ لأذهان الناس.

(١) للعلامة البشير الإبراهيمي، ضمن مجموع مؤلفاته وآثاره -بتصرف واختصار-، (١/ ٣٢١).

وإذا قارنا بين ﴿وَلِيُنذَرُواْ بِهِۦ﴾(إبراهيم:٥٢) وبين ﴿لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ (ص:٢٩) وجدنا بينهما فرقا جليا لا يستهان به في مقام التذكير والإبلاغ في التأثير. فالإنذار ـ وإن كان معناه الإعلام بالشيء مع التخويف من عواقبه ـ فإنه لا يستلزم التدبر، الذي هو انفعال داخلي ذاتي يفضي إلى النظر في إدبار الشيء وغاياته على وجه من إعمال الذهن والفكر في ذلك، وهذا ما يدل عليه بناءُ الفعل (تفعّل)، أما أثر الإنذار فهو تأثير خارجي، والإنذار لا يُشْعِرُ النفس ما يشعرها التدبر من العهد المسؤول والأمانة الثقيلة.

أما الاتباع، فهو ثمرة التدبر، وهو الذي لا تتحقق الغايات التي يرمي إليها القرآن إلا به، وقد تكرر ذكره في القرآن في مناسبات شتى؛ تدل مستعرضها على أنه هو سر التدين والتأله، وأنه المحقق للكمال، وأنه العاصم من الضلال والهلاك، فليتدبر القارئ جملةً من الآيات القرآنية في هذا المعنى: ﴿ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ﴾(الأعراف:٣)، ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُ﴾(الأنعام:١٥٣)، ﴿فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ﴾(آل عمران:٣١)، ﴿وَٱتَّبِعۡ سَبِيلَ مَنۡ أَنَابَ إِلَيَّ﴾(لقمان:١٥)، ﴿ٱتَّبِعُواْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾(يس:٢٠)، ﴿ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسۡـَٔلُكُمۡ أَجۡرٗا﴾(يس:٢١)، ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشۡقَىٰ﴾(طه:١٢٣).

ويا للعجب من بيان القرآن وبيناته وإعجازه بفنون إيجازه! فالاتباع نوع من قفو أثر الغير، وترسم خطاه والانقياد له، ولهذا تجد القرآن يأمرك بالتدبر، واستعمال الحواس الظاهرةِ والباطنةِ قبل أن يأمرك بالاتباع، حتى تطمئن إلى أنك إنما تتبع فيما فيه حق وخير ورحمة، ثم إذا أمرك بالاتباع؛ فإنما ذاك فيما يتعالى على فكرك إدراكه، أو يصعب عليك تمييزه، أو يخاف فيه غلبة الأهواء عليك.

وبعد الأمر بالتدبر ينهى عن اتباع الهوى المضل عن سبيل الحق، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾(ص:٢٦)، وينهى عن اتباع أهواء الذين لا يعلمون، وعن اتباع خطوات الشيطان، وعن اتباع أولياء من دون الله، وعن اتباع السبل المتفرقة، توكيدا للمعنى الإيجابي وإيضاحا للحق الذي يجب أن يتبع.

إن المتدبر للقرآن حقًا سيخرج بعد هذا بحقيقة كبرى، وهي: أن الاتباع الذي يدعو إليه القرآن هو عين الاستقلال التام للفكر والإرادة، والعقل والوجدان؛ لأنه يحميها من شرور الأهواء، ويؤويها إلى حمى الحق وحده، والاحتماء بالحق الذي قامت به السموات والأرض، واستقر عليه تدبير الكون ونظامه، استقلال ما وراءه استقلال، وصدق الله: ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ﴾(المؤمنون :٧١).

إنه لم يمض على المسلمين في تاريخهم الطويل عصر هم فيه أبعد عن القرآن منهم في هذا العصر، ولم يمض على الدعاة إلى الحق وقت عظمت فيه العهدة واستغلظ الميثاق مثل هذا الوقت، وإنه لا مخرج لهم من هذه العهدة ولا تحلل من هذا الميثاق إلا بالدعوة إلى القرآن. فلا عجب- ونحن نشعر بثقل هذه الأمانة- من أن ترتفع أصواتنا بالدعوة إليه. وإنما العجب الذي لا عجب بعده أن نسكت أو نقصر، وإن من أحكم الوسائل لجذب الأمة إلى القرآن: وصف القرآن، وتشويق الناس إلى الإقبال عليه وتدبره وفهمه.



المجلس الرابع والعشرون

من فوائد قصة داود وسليمان عليهما السلام في سورة ص[1]

إن في قصص القرآن عبرًا وعظات، خاصةً تلك التي قصّها الله عن أنبيائه ورسله -عليهم السلام-، ومن ذلك قصة داود وسليمان في سورة ص، فإن فيها فوائد كثيرة، منها:

١) أن من أكبر نعم الله على عبده: أن يرزقه العلم النافع، ويعرف الحكم والفصل بين الناس، كما امتن الله به على عبده داود عليه السلام.

٢) ومنها: اعتناء الله تعالى بأنبيائه وأصفيائه عندما يقع منهم بعض الخلل بفتنته إياهم وابتلائهم بما به يزول عنهم المحذور، ويعودون إلى أكمل من حالتهم الأولى، كما جرى لداود وسليمان عليهما السلام.

٣) ومنها: أنه ينبغي استعمال الأدب في الدخول على الحكام -أي القضاة- وغيرهم؛ فإن الخصمين لما دخلا على داود في حالة غير معتادة ومن غير الباب المعهود، فزع منهم، واشتد عليه ذلك، ورآه غير لائق بالحال.

---

(١) للعلامة السعدي رحمه الله، ملخصة من تفسيره: (ص: ٧١٣).

٤) ومنها: أنه لا يمنع الحاكم من الحكم بالحق سوء أدب الخصم، وفعله ما لا ينبغي.

٥) ومنها: كمال حلم داود عليه السلام، فإنه ما غضب عليهما حين جاءاه بغير استئذان، وهو المَلِكُ، ولا انتهرهما، ولا وبخهما.

٦) ومنها: جواز قول المظلوم لمن ظلمه «أنت ظلمتني» أو «يا ظالم» ونحو ذلك أو باغ عليّ؛ لقولهما: ﴿خَصۡمَانِ بَغَىٰ بَعۡضُنَا عَلَىٰ بَعۡضٍ﴾(ص :٢٢).

٧) ومنها: أن الموعوظ والمنصوح، ولو كان كبير القدر، جليل العلم، إذا نصحه أحد، أو وعظه، لا يغضب، ولا يشمئز، بل يبادره بالقبول والشكر، فإن الخصمين نصحا داود فلم يشمئز ولم يغضب ولم يثنه ذلك عن الحق، بل حكم بالحق الصرف.

٨) ومنها: أن المخالطة بين الأقارب والأصحاب، وكثرة التعلقات الدنيوية المالية، موجبة للتعادي بينهم، وبغي بعضهم على بعض، وأنه لا يرد عن ذلك إلا استعمال تقوى الله، والصبر على الأمور، بالإيمان والعمل الصالح، وأن هذا من أقل شيء في الناس.

٩) ومنها: أن الاستغفار والعبادة، خصوصا الصلاة، من مكفرات الذنوب؛ فإن الله رتب مغفرة ذنب داود على استغفاره وسجوده.

١٠) ومنها: إكرام الله لعبده داود وسليمان، بالقرب منه، وحسن الثواب، وأن لا يظن أن ما جرى لهما منقص لدرجتهما عند الله تعالى، وهذا من تمام لطفه بعباده المخلصين، أنه إذا غفر لهم وأزال أثر ذنوبهم، أزال الآثار المترتبة عليه كلها، حتى ما يقع في قلوب الخلق؛ فإنهم إذا علموا ببعض ذنوبهم، وقع في قلوبهم نزولهم عن درجتهم الأولى، فأزال الله تعالى هذه الآثار، وما ذاك بعزيز على الكريم الغفار.

١١) ومنها: أن الحكم بين الناس مرتبة دينية، تولاها رسل الله وخواص خلقه، وأن وظيفة القائم بها الحكم بالحق ومجانبة الهوى، فالحكم بالحق يقتضي: العلم بالأمور الشرعية، والعلم بصورة القضية المحكوم بها، وكيفية إدخالها في الحكم الشرعي، فالجاهل بأحد الأمرين لا يصلح للحكم، ولا يحل له الإقدام عليه.

١٢) ومنها: أنه ينبغي للقاضي أن يحذر الهوى، ويجعله منه على بال؛ فإن النفوس لا تخلو منه، بل يجاهد نفسه بأن يكون الحق مقصوده، وأن يلقي عنه وقت الحكم كل محبة أو بغض لأحد الخصمين.

١٣) ومنها: أن كل ما أشغل العبد عن الله، فإنه مشؤوم مذموم، فَلْيُفَارِقْه ولْيُقْبِلْ على ما هو أنفع له، وهذا ظاهر في قصة سليمان مع الخيل.

١٤) ومنها: القاعدة المشهورة: «من ترك شيئا لله عوضه الله خيرا منه»، فسليمان عليه السلام عقر الجياد الصافنات المحبوبة للنفوس؛ تقديما لمحبة الله، فعوضه الله خيرا من ذلك، بأن سخر له الريح الرخاء اللينة، التي تجري بأمره إلى حيث أراد وقصد، غدوها شهر، ورواحها شهر، وسخر له الشياطين، أهل الاقتدار على الأعمال التي لا يقدر عليها الآدميون.



المجلس الخامس والعشرون

﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ﴾[1]

«ما شيء أجده في قلبي ألذُّ عندي من قيام الليل»[2] ما كان للتابعي الجليل ثابت البناني رحمه الله أن يقول هذا إلا بعدما زكت نفسه، وصَلَح قلبه، وطابت حياته، بعدما تعرَّض لنفحات الله في أسحار الليالي، وذاق لذة مناجاته في الأوقات الخوالي، فسبحان من تفضل على عباده بهذا النعيم قبل لقائه، وبصَّرهم بطريق السعادة، ورزقهم لذة هذه العبادة، فَهُم بليلهم ألذُّ من أهل اللهو بلهوهم، ولولا الليل ما أحبُّوا البقاء بالدنيا[3]!

وإن الناظر في النصوص الشرعية عن حقيقة هذه العبادة تتجلى له مقاصدها في عدة إشراقات قرآنية تظهر في كتاب الله سبحانه وتعالى بكون التهجد هو الصلة الدائمة بالله المؤدية للمقام المحمود الذي وعده محمدًا صلى الله عليه وسلم فما أحوج الآخرين من أمته للاقتداء به لينالوا علوَّ المقام ورفعة الدرجات، ففي سورة

(١) كتبه: الشيخ: عبداللطيف بن عبدالله التويجري.

(٢) صفة الصفوة (٢/ ١٥٥).

(٣) قاله أبو سليمان الداراني كما في حلية الأولياء (٩/ ٢٧٥).

الإسراء: ﴿ وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةٗ لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا ﴾ (الإسراء: ٧٩)!

وفي آيات أخرى تبرز عدة أوامر إلهية لرسولنا الكريم ﷺ للقيام بهذه العبادة الجليلة، ففي سورة المزمل نداء للرسول ﷺ بترك التزمل (وهو التغطي بالليل) والنهوض إلى القيام بالليل والعبادة [١] ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ ١ قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا ٢ نِّصۡفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلًا ٣ أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ وَرَتِّلِ ٱلۡقُرۡءَانَ تَرۡتِيلًا﴾ (المزمل: ١ - ٤) فكان خيرَ مثال في ذلك، بأبي هو وأمي ﷺ.

وفي آية المزمل الأخرى بينت أن القيام بالليل أجمع للخاطر وأجدر لفقه القرآن: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ هِيَ أَشَدُّ وَطۡـٔٗا وَأَقۡوَمُ قِيلًا﴾ (المزمل: ٦) كما قاله ابن عباس رضي الله عنهما [٢].

وفي سورة الشرح خطاب له ﷺ بعدم القيام إلا بعد الفراغ من أمور الدنيا وأشغالها؛ لكي يكون نشيطًا فارغ البال مخلصًا الرغبة والنية لله سبحانه وتعالى [٣]: ﴿فَإِذَا فَرَغۡتَ فَٱنصَبۡ ٧ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرۡغَب﴾ (الشرح: ٧ - ٨).

---

(١) ينظر: تفسير ابن كثير (٤/ ٥٥٧).
(٢) أخرجه أبو داود ح (١٣٠٦).
(٣) ينظر: تفسير ابن كثير (٤/ ٦٨٠).

وفي سورة آل عمران ورد الثناء على طائفة من أهل الكتاب بسبب هذا الفعل: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾ (آل عمران: ١١٣)، وفي سورة الذاريات يبرز في سمات عباد الله المتقين: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ (الذاريات: ١٥ - ١٨).

وفي إشراقة أخرى في سورة الزمر يأتي تفضيل القانت الخاشع على غيره: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا﴾ (الزمر: ٩).

ويتضح الأمر أيضًا في الأحاديث النبوية؛ حيث جاء الحثُّ عليها في صورة بهية وجزاء وافر في عدة أحاديث كريمة من الرسول الكريم ﷺ تارة في الشفاعة لصاحب هذه العبادة: «**فيقول القرآن: منعتُه النوم بالليل**»[١].

ومرة في حثٍّ وتربية شباب الأمة على ذلك: «**نعم الرجل عبد الله لو كان يصلي من الليل**»[٢].

---

(١) أخرجه أحمد ح(٦٦٢٦).

(٢) قال ذلك لعبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال سالم: فكان عبد الله بعد ذلك لا ينام من الليل إلا قليلًا. صحيح البخاري: (١١٢٢).

وفي حديث آخر بيَّن ﷺ أنه به تكون الغبطة الحقيقية: «**لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله القرآن فهو يقوم به آناء الليل وآناء النهار، ورجل آتاه الله مالًا فهو ينفقه آناء الليل وآناء النهار**»[1].

وفي حثٍّ آخر يبيِّن ﷺ أنه اقتـداء وقربة ومنهاة عن الإثم، كما في حديث أبي أُمامة مرفوعًا: «**عليكم بقيام الليل فإنه دأب الصالحين قبلكم، وهو قربة إلى ربكم، ومكفرة للسيئات، ومنهاة للإثم**»[2].

وأخيرًا -أيها المبارك- جاهد نفسك على التهجد ففيه خيرات عظيمة، وهو معين جدًا على التدبر، فلا يثبت القرآن في الصدر ولا يسهل حفظه وييسر فهمه، إلا القيام به في جوف الليل، كما يقول الشيخ محمد الأمين الشنقيطي[3]، كما أن التعرض لنفحات الله سبحانه وتعالى في هذا الوقت وقراءة كتابه بتدبر وخشوع ودعاء، زادٌ مضمون يعين على جميع مشاق الحياة وأتعابها.

---

(١) صحيح مسلم، ح (٨١٥).
(٢) أخرجه الترمذي، ح (٣٥٤٩).
(٣) مقدمة أضواء البيان: ص٤.



المجلس السادس والعشرون

﴿لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلۡبٌ﴾(١)

إنَّ الانتفاع بالقرآن الكريم مرتبط بحضور القلب كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكۡرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلۡبٌ أَوۡ أَلۡقَى ٱلسَّمۡعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ (ق: ٣٧) والمرء إذا كان لقلبه أجمع، وعن الشواغل أبعد، كان أقرب إلى تدبر ما يتلو من كتاب الله؛ إذ إن القلب محل تدبر القرآن قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٩٢ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ ١٩٣ عَلَىٰ قَلۡبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ﴾ (الشعراء: ١٩٢ - ١٩٤).

فتأمل أخي المبارك كيف خُصَّ القلب بإنزال القرآن عليه، حيث كان قلبه ﷺ محلًا للقرآن، وكذلك الحال لمن أراد تدبر القرآن والانتفاع به يجب أن يكون قلبه محلًا للقرآن كذلك.

وبيان ذلك: أن الانتفاع بالقرآن متحقق لأصحاب القلوب الحيَّة قال ابن القيم في قوله: « ﴿لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلۡبٌ﴾ فهذا هو المحل القابل والمراد به:

---

(١) كتبه: الشيخ: عبداللطيف بن عبدالله التويجري.

القلب الحي الذي يعقل عن الله كما قال تعالى: ﴿ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴾ (يس: ٧٠)»[١]. «فعبر عن النفس الحية بالقلب؛ لأنه وطنها ومعدن حياتها»[٢].

وقد جمع اللهُ تعالى ذلك في قوله: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾ (محمد: ٢٤) فعلق فهم القرآن وتدبره على انفتاح القلب وحضوره كما دل عليه المفهوم، وعلق الانصراف عن فهم القرآن وعن تدبره على انغلاق القلب، كما دل عليه منطوق قوله تعالى: ﴿أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾ أي: «أم أقفل الله على قلوبهم فلا يعقلون ما أنزل الله في كتابه من المواعظ والعبر»[٣].

ولما كان سلفنا الصالح أصحاب قلوب حية وأفئدة نقية؛ انتفعوا بالقرآن وتدبروه حق تدبره، فظهرت آثار ذلك عليهم من وجل القلوب وقشعريرة الجلد ودمع العين، كما جاء بيان وصفهم في قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَـٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ (الأنفال:٢) وقال عن تأثرهم: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَـٰبًا مُّتَشَـٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾ (الزمر: ٢٣).

---

(١) الفوائد، ص(٣).

(٢) تفسير القرطبي (١٧/ ٢٣).

(٣) جامع البيان (٢٦/ ٥٧).

وقد كانوا رضي الله عنهم على دراية بأثر طهار القلب في إقباله على كتاب الله، فكان لهم باب السبق في هذا الميدان قولًا وعملًا، فقد روي عن أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه أنه قال: «لو طهرت قلوبنا ما شبعت من كلام الله»[1].

وهذه قَوْلَةٌ[2] بليغة جامعة منه رضي الله عنه، وقد حقق ذلك عملًا من خلال تدبره لكتاب الله، حتى خرق مصحفه من كثرة ما يديم النظر فيه، ورثاه شاعر الرسول صلى الله عليه وسلم حسان بن ثابت بقوله:

ضحّوا بأشمطَ عنوانُ السجود بِهِ   يُقَطّـع الليل تسبيحـًا وقرآنـا[3].

ونعتته زوجه فقالت: «فو الله لقد كان يحيي الليل بالقرآن في ركعة»[4].

فينبغي لتالي القرآن أن يطهر قلبه من الشهوات والشبهات؛ لأنها مانعة وحاجبة عن تدبر كتاب الله، وبالمقابل فتطهير القلب منهما دافع مؤثر في فهم القرآن وتدبره، قال ابن مسعود رضي الله عنه «إن هذه القلوب أوعية فأشغلوها بالقرآن، ولا تشغلوها بغيره»[5].

---

(١) الزهد للإمام أحمد، ص(١٨٨).
(٢) جاء في مختار الصحاح ما نصُّه: (ق و ل: قالَ يقول قَوْلًا وقَوْلَةً ومَقَالًا).
(٣) ديوان حسان بن ثابت رضي الله عنه (٢٣٠)، ومطلع القصيدة:
مَنْ سَرّهُ الموْتُ صِرْفًا لا مِزَاجَ لهُ   فلْيأتِ مأسَدةً في دارِ عُثمانا
(٤) البداية والنهاية لابن كثير (٧/ ٢١٤).
(٥) حلية الأولياء لأبي نعيم (١/ ١٣١).

ولقد قال الله تعالى: ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ﴾ (الواقعة: ٧٩) «فإذا كان ورقه لا يمسه إلا المطهرون؛ فمعانيه لا يهتدي بها إلا أصحاب القلوب الطاهرة»[١].

(١) شرح حديث النزول لابن تيمية ص(٤٢٨)، والمستدرك على فتاوى ابن تيمية (١/ ١٦٩).



المجلس السابع والعشرون

﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلۡأَتۡقَى﴾ (١)

قال تعالى: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلۡأَتۡقَى ﴿١٧﴾ ٱلَّذِي يُؤۡتِي مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعۡمَةٖ تُجۡزَىٰٓ ﴿١٩﴾ إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ رَبِّهِ ٱلۡأَعۡلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوۡفَ يَرۡضَىٰ﴾ (الليل: ١٧-٢١).

هذه الآية أحد مناقب أبي بكر الصديق رضي الله عنه، وهي تثبت له صفة التقوى، وتثني عليه بفضيلة الإنفاق.

يقول ابن كثير رحمه الله: «وقد ذكر غير واحد من المفسرين أن هذه الآيات نزلت في أبي بكر الصديق رضي الله عنه ،حتى إن بعضهم حكى الإجماع من المفسرين على ذلك، ولا شك أنه داخل فيها وأولى الأمة بعمومها فإن لفظها لفظ العموم...، ولكنه مقدم الأمة وسابقهم في جميع هذه الأوصاف وسائر الأوصاف الحميدة؛ فإنه كان صديقا تقيا كريما جوادا بذالا لأمواله في طاعة مولاه ونصرة رسول الله صلى الله عليه وسلم فكم من دراهم ودنانير بذلها ابتغاء وجه ربه الكريم، ولم يكن لأحد من الناس عنده منة يحتاج إلى أن يكافئه بها،

(١) كتبه: أ. د. عويض بن حمود العطوي، وكيل الدراسات العليا بجامعة تبوك.

ولكن كان فضله وإحسانه على السادات والرؤساء من سائر القبائل...»[1] انتهى كلامه.

ولنعد إلى تأمل هذه الآيات الكريمة، وما فيها من البيان العجيب:

يقول سبحانه وتعالى بعد الحديث عن النار: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى﴾، ولم يقل: ويتجنبها، كما قال بعد ذكر الجنة: ﴿وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى﴾(الأعلى: ١١)؛ للدلالة على أن الله هو الذي جنبه تلك النار، وذلك فضل من الله ومنّة.

وجاء وصف (الأتقى) بهذه الصيغة؛ لبيان عظم اتصافه بهذه الصفة، وللإشعار بأن سبب تجنيبه النار هو التقوى، ثم بينت الآيات الصفة المميزة له، الدالة على التقوى ومقدارها ألا وهي الإنفاق ﴿ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ﴾، والإنفاق من أهم سمات المتقين، قال تعالى: ﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ﴾ (آل عمران: ١٣٣، ١٣٤).

وجاءت كلمة (يتزكى) لبيان أن إنفاق المال تزكية له ولصاحبه، وجاء الفعل بصيغة المضارع (يتزكى)؛ للدلالة على تجدد التزكية كلما حصل الإنفاق، «وجملة ﴿يَتَزَكَّىٰ﴾ حال في ضمير ﴿يُؤْتِى﴾، وفائدة الحال التنبيه على أنه يؤتي ماله لقصد النفع والزيادة من الثواب؛ تعريضًا بالمشركين الذي يؤتون المال للفخر والرياء والمفاسد والفجور»[2].

(١) تفسير ابن كثير (١٤/ ٣٧٩).

(٢) التحرير والتنوير (١٦/ ٢٩٥).

وبيّنت الآيات أنه يفعل طلبًا للثواب، ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعۡمَةٖ تُجۡزَىٰٓ﴾، والإخلاص في الإنفاق ليس أمرًا هيّنًا، إلا عند من وفقه الله من الأتقياء الأنقياء، وجاء النفي ﴿وَمَا لِأَحَدٍ﴾؛ للإشارة إلى عظم هذه المنقبة فيه.

والأصل في ﴿عِندَهُۥ﴾ أنه ظرف مكان يعبر به عن الحسيات، ودلّ هنا على تمكن المعنى كتمكن الكائن في المكان القريب[1].

وقد أثبت الإخلاص له بطريقين: الأول: نفي أن يكون ذلك لرد معروف، والثاني: إثبات كونه فعل ذلك لوجه الله، ﴿إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ رَبِّهِ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾ و«المعنى: لا يُؤتِي مالَه إلا ابتغاءَ وجهِ ربِّه لا لمكافأةِ نعمةٍ»[2].

«والابتغاء: الطلب بجد لأنه أبلغ من البغي»[3]. يقول ابن كثير رحمه الله: «أي: طمعًا في أن يحصل له رؤيته في الدار الآخرة في روضات الجنات»[4].

وجاء ذكر اسم الله الأعلى هنا؛ لأن الإنسان جبل على طلب الرفعة بماله والثناء عليه به، والمؤمن يعمل ذلك العمل ابتغاء مرضات الله الأعلى، فالعلو منه وإليه سبحانه، والنتيجة إن فعل ذلك: ﴿وَلَسَوۡفَ يَرۡضَىٰ﴾،

---

(١) ينظر: التحرير والتنوير (١٦/ ٢٩٦).

(٢) تفسير أبي السعود (٧/ ٢٤).

(٣) التحرير والتنوير (١٦/ ٢٩٦).

(٤) تفسير ابن كثير (٨/ ٤٢٢).

والرضا نعمة قلّ من ينعم بها؛ وهي نتيجة للتقوى وإنفاق المال لوجه الله، وقد تشير (سوف) إلى أن الرضى المقصود يكون في الآخرة؛ وذلك بالأجر العظيم الذي يرضي صاحبه، وجاء تأكيد وقوع ذلك الرضى باللام في (ولسوف)، وهذه الجملة «من جوامع الكلم؛ لأنها يندرج تحتها كل ما يرغب فيه الراغبون»[1].

(١) التحرير والتنوير (١٦/ ٢٩٦).



المجلس الثامن والعشرون

﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾[1]

هذا السؤال الذي تضمنته هذه الآية الكريمة، طالما قرأناه، وكثيرًا ما تلوناه، فهل أدركنا شيئًا من أثره في نفوس المتدبرين؟

إن المؤمن كلما تأمل في أفعال الله بالأمم الماضية، وتأمل في الحياة، وكيف قدَّر الله الأقدار؛ امتلأ قلبه إجلالًا وتعظيمًا لحُكْمِهِ في تصريف شؤون الخلق، وعلم أنَّ ما يخفى من الحكم أعظم مما يظهر للناس، وكلما استشعر قلبه تلك الحكم والمقاصد اطمأن وزاد يقينه بربه.

ومن ذلك ما يقدّره الله تعالى بحلول المصائب والنكبات، فإن لها حكمًا جليلة، منها: ظهورُ كمال علم الله وقدرته وعجز الإنسان وفقره وضعفه، وذلك حين يعجز الإنسان عن دفع الضر عن نفسه وهو يظن أنه استكمل أسباب الوقاية والحذر، وحين لا يدفع حي عن نفسه موتًا، وحين لا يدفع غني عن نفسه مرضًا، وحين تقع الزلازل والبراكين في ثوان معدودة تهز

---

(١) كتبه: سلمان بن عمر السنيدي، مؤلف كتاب: تدبر القرآن.

الأرض ومن عليها ثم تغير معالمها، وتقف أمامها قوى المخلوقين مشدوهة قاصرة. فسبحان من لا تخفى عليه خافية في السماء ولا في الأرض!

ومنها: تمكينُ الكافرين وتسلطهم على المؤمنين، ففي ذلك ابتلاء تظهر فيه عبادات كثيرة منها: شعيرةُ الجهاد بالنفس والمال، والصبرُ على الأذى في سبيل الله ومصابرة الأعداء، وصدقُ التوكل على الله، وحقيقةُ الإخلاص له في الدعاء، قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَا۟ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ﴾(محمد: ٤)، وقال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾(البقرة: ٢١٤).

ومنها: ما يصيب المجتمع المسلم من فتن ومصائب، ففي ذلك تمحيصُ المجتمع المسلم، وتمييزٌ للصادق من المنافق؛ فإنه حال الرخاء لا يظهر فيها الصادق من الكاذب، ولا يُعرف المؤمن من المنافق، فاقتضت حكمة الله أن تتغير بعض الأحوال ليَعْرِفَ المؤمنون أحوالهم، وتتمايز صفوفهم؛ وليكون جزاء المنافق على ما كسب من قول وعمل، قال الله تعالى: ﴿وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾(آل عمران: ١٥٤).

ومنها: أن في المصائب تطهيرا لأهل الإيمان وتكفيرا لسيئاتهم، التي تكون سببا لدخولهم الجنة أو رفعة لمنازلهم فيها، قال تعالى: ﴿فَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَأُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمۡ وَأُوذُواْ فِي سَبِيلِي وَقَٰتَلُواْ وَقُتِلُواْ لَأُكَفِّرَنَّ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ وَلَأُدۡخِلَنَّهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ ثَوَابٗا مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلثَّوَابِ﴾ (آل عمران :١٩٥) وفي الصحيح عنه ﷺ قال: «**ما يصيب المسلم من نصب ولا وصب ولا هم ولا حزن ولا أذى ولا غم حتى الشوكة يشاكها إلا كفر الله بها من خطاياه**»[١]؛ ولهذا المعنى قال إبراهيم المقرئ ولما رفسته بغلته فكسرت رجله: «لولا مصائب الدنيا قدمنا على الله مفاليس»[٢].

ومن حكم الله في تغيير الأحوال وحدوث المصائب والنكبات: أن فيها عبرةً للمتكبرين، وإنذار للمعرضين لعلهم يرجعوا إلى ربهم، قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أَهۡلَكۡنَا مَا حَوۡلَكُم مِّنَ ٱلۡقُرَىٰ وَصَرَّفۡنَا ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ﴾ (الأحقاف:٢٧).

ومن الحكم في الأقدار المؤلمة والمصائب: أنها عقوبة معجلة على بعض معاصي الناس، كما قال الله تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلۡفَسَادُ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ بِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِي ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعۡضَ ٱلَّذِي عَمِلُواْ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ﴾ (الروم: ٤١).

---

(١) رواه البخاري (٥٦٤١).

(٢) شعب الإيمان (١٢/ ٣٥١).



وهذه الحكم العظيمة لا يحيط بها إلا الله، فكم في حجب الغيب من فتح وفرج ونصر ورحمة!

ومن رحمة الله بعباده أن أطلعهم على شيء من حكمته البالغة؛ ليزيد المؤمن إيمانًا بربه، فكما هو حكيم في خلقه وتقديره، هو حكيم في شرعه وأمره، والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون.



المجلس التاسع والعشرون

﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ﴾(١)

هذا خبر من العليم الخبير، فيه بيان لحقيقة هذا الإنسان، الذي خلقه الله من علق، وعلمه ما لم يكن يعلم، فمع ما أنعم الله به عليه من النعم التي من أجلّها ما ذُكر من نعمة الخلق والتعليم، إلا أنه يقابل هذه النعم بالكفر والجحود، ويتجاوز حدّه فيطغى ويتكبر ويعاند ويتمرد، خاصة عندما يرى نفسه مستغنيا غير محتاج لأحد.

إن القارئ المتدبر لهذا الخبر المؤكد يتعامل مع ما دلّت عليه هذه الآية من جهتين:

الأولى: قلبية: بأن يصدّق بما أخبره الله به تصديقًا جازمًا، يزداد به إيمانه، ويقوى به يقينه.

وهذا هو المنهج التدبري الذي ينبغي التعامل به مع كل ما أخبر الله سبحانه وتعالى به في كتابه: أن يقابل بالتصديق الجازم، ومن سلك هذا المسلك، واستحضره

(١) كتبه: د. محمد بن عبدالله بن جابر القحطاني، الأستاذ المشارك في جامعة الملك خالد بأبها.

بقلبه عند كل خبر من أخبار الله تعالى؛ فإنه ينال نصيبا وافرًا من منزلة «الصدِّيقيَّة»، فلا يزال يصدّق ويصدّق حتى يكتب عند الله صديقًا. ويا لها من منزلة رفيعة شريفة!

الجهة الثانية: سلوكية عملية، وذلك بأن يحذرَ من الطغيان الذي ذمّ الله به الإنسان، ويتجنبَ أسبابه، ويجتهدَ في القيام بما يقضي على هذا المرض الخطير إن وجدت علاماته وأعراضه.

والمتدبر لهذا الخبر في سياقه الذي ورد فيه سيجد أن أسباب هذا الطغيان ترجع إلى أصل واحد: وهو شعور الإنسان بالاستغناء، وهذا ما صرحت به الآية الكريمة التي تلت هذا الخبر مباشرة: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾ (العلق: ٦، ٧).

والاستغناء: هو شدة الغنى، وهو الحال الذي يرى فيه الإنسان نفسه غير محتاج لأحد، وهي حالة نفسية خطيرة، تؤدي إلى التكبر والتساهل في ظلم الآخرين والاستخفاف بهم والتعدي على حقوقهم.

وجميل ومهم ما أورده العلامة القاسمي في تفسيره تعليقا على هذه الآية، حيث قال ما مختصره: «دلت الآية على قاعدة عظيمة في باب التموّل المحمود، قررها الحكماء المصلحون، وهي أن لا يتجاوز المال قدر الحاجة بكثير. قالوا: لأن إفراط الثروة مهلكة للأخلاق الحميدة في الإنسان، كما نطقت به الآية الكريمة.

قال بعض الحكماء: التمَوُّل لأجل الحاجات محمود بثلاثة شروط:

الشرط الأول: أن يكون إحراز المال بوجه مشروع حلال.

والشرط الثاني: أن لا يكون في التمَوُّل تضييق على حاجات الغير، كاحتكار الضروريات، أو مزاحمة الصناع والعمال الضعفاء، أو التغلب على المباحات.

الشرط الثالث: هو أن لا يتجاوز المال قدر الحاجة بكثير، وإلا فسدت الأخلاق؛ ولذلك حرمت الشرائع السماوية كلها والحكمة السياسية والأخلاقية والعمرانية أكلَ الربا، وذلك لقصد حفظ التساوي والتقارب بين الناس في القوة المالية؛ لأن الربا كسب بدون مقابل ماديّ، ففيه معنى الغصب وبدون عمل؛ ففيه الألفة على البطالة المفسدة للأخلاق، وبدون تعرض لخسائر طبيعية كالتجارة والزراعة والأملاك. دع أن بالربا تربو الثروات، فيختل التساوي بين الناس.» انتهى.[1]

وأما الأمور التي يحصل بها علاج هذا المرض فيمكن حصرها في ثلاثة دلت عليها آيات سورة العلق:

الأول: الإيمان بالآخرة وتذكر الرجوع إلى الله، وهذا ما أفاده ودلّ عليه قول الله تعالى: ﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ﴾ (العلق: ٨)، فكلما قوي الإيمان بالآخرة، وزاد اليقين بالرجوع إلى الله؛ قلّ الطغيان واضمحل.

---

(١) محاسن التأويل (٩/ ٥١١-٥١٢).



الثاني: العلم الجازم برؤية الله لعبده وقدرته عليه، فالله يرى هذا الإنسان، وهو قادر على إهلاكه وأخذه. وهذا ما أشارت إليه الآيات الكريمة في نفس السياق، حيث قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ﴿١٤﴾ كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ ﴿١٥﴾ نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴿١٦﴾ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ﴿١٧﴾ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ﴾ (العلق: ١٤-١٨).

الثالث: العلم النافع الذي يثمر الذل والخضوع لله تعالى، وهذا مستنبط من الآيات التي افتتحت بها سورة العلق، والآية التي اختتمت بها، ففي مطلع هذه السورة قال الله تعالى: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾(العلق:١-٥)، وفي آخرها قال سبحانه: ﴿كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ۩﴾(العلق: ١٩). والسجود لله والاقتراب منه لا يجتمعان مع الطغيان أبدا.



المجلس الثلاثون

﴿وَٱسۡجُدۡ وَٱقۡتَرِب﴾ [(١)]

نعيش في هذا المجلس في رحلة تدبرية مع آية كريمة أنزلها الله تعالى في أول سورة نزلت من كتابه -وهي سورة العلق-، آية هي محط رحل العبد في مسيره لربه، هي قوله تعالى ﴿وَٱسۡجُدۡ وَٱقۡتَرِب﴾(العلق: ١٩).

ولنا مع هذه الآية وقفات تدبرية نقتبس من أنوارها وننهل من معينها؛ عسى أن تمس شغاف قلوبنا أنوارها.

الوقفة الأولى: مع معاني الآية ودلالاتها.

هذه الآية نزلت في أمر النبي ﷺ حين هدده أبو جهل بقوله: لئن رأيت محمدًا يصلي لأطأنّ عنقه، فقال الله ﴿كَلَّا لَا تُطِعۡهُ وَٱسۡجُدۡ وَٱقۡتَرِب﴾(العلق:١٩)[(٢)]. ومعنى الآية: لا تلتفت إلى نهيه لك عن عبادة ربك، ﴿وَٱسۡجُدۡ﴾ لربك بصلاتك له، واقترب إليه بسجودك وبالطاعة.

---

(١) كتبه: د. محمد بن عبدالله الربيعة، الأستاذ المشارك بجامعة القصيم، وعضو الهيئة العالمية لتدبر القرآن.

(٢)ينظر: تفسير ابن جرير (٢٤/ ٥٢٧).



هذه الآية الكريمة جاءت في آخر سورة العلق التي افتتحت بـ ﴿ٱقۡرَأۡ﴾، فتأمل كيف افتتحت السورة بالعلم واختتمت بالعمل؛ ليدل على أن العلم الصحيح هو ما تبعه العمل.

تأمل تخصيص السجود دون الصلاة في السورة؛ ذلك أنه سر الصلاة والركن الأعظم فيها، ولكونه محط رحل المصلي بين يدي ربه.

في قوله ﴿وَٱقۡتَرِب﴾ عناية من الله لنبيه ولكل مؤمن وأي عناية، إنها نداء بالقرب منه والتقرب إليه، إنها كلمة وأي كلمة تختصر المسافات الطويلة بينك وبين الله لتصلك به مباشرة.

تضمنت هذه الكلمة معنيين: معنى التقرب إلى الله بالطاعات، ومعنى القرب من الله منزلة وفضلًا، وهما متلازمان فالتقرب إلى الله تعالى سبيل للقرب منه منزلة وفضلًا.

في قوله ﴿وَٱقۡتَرِب﴾ دلالة على أن الاقتراب إلى الله يستلزم ابتعادًا عن كل ماينافي التقرب إليه وما يصرف القلب عنه، فهل استشعرت ذلك وحققته؟

الوقفة الثانية: في ظلال الآية.

في حقيقة السجود:

قال البهوتي: «والسجود: غاية التواضع؛ لما فيه من وضع الجبهة، وهي أشرف الأعضاء على مواطئ الأقدام؛ ولهذا كان أفضل من الركوع»[1].

في فضائل السجود:

ورد في فضل السجود أحاديث منها: قوله ﷺ: «**أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد؛ فأكثروا الدعاء**»[2].

في سجود القلب:

قال ابن القيم: «قيل لبعض العارفين: أيسجد القلب؟ قال: نعم يسجد سجدة لا يرفع رأسه منها إلى يوم اللقاء فهذا سجود القلب، فقلب لا تباشره هذه الكسرة فهو غير ساجد السجود المراد منه، إذا سجد القلب لله هذه السجدة العظمى سجدت معه جميع الجوارح، وعنا الوجه حينئذ للحي القيوم، وخشع الصوت والجوارح كلها وذل العبد وخضع واستكان، ووضع خده على عتبة العبودية ناظرا بقلبه إلى ربه ووليه نظر الذليل إلى العزيز الرحيم...»[3].

(١) شرح منتهى الإرادات (١/ ١٩٥).
(٢) أخرجه مسلم ح (٤٨٢).
(٣) مدراج السالكين (ص٤٢٩).

الوقفة الثالثة : أثر الآية في حياتنا.

في زمن الطغيان والفتن وأذية الطغاة للمؤمنين ينبغي أن ينشغل المؤمنون بالإقبال على عبادة ربه والإعراض عن الجاهلين، وتأمل كيف أمر الله نبيه في مواجهة تهديد أبي جهل بقوله ﴿ كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِب ﴾.

في زماننا ترى في المسلمين ضعفًا في عبوديتهم وبعدًا وابتعادًا عن ربهم، ترى مظاهر من توسلهم بغير ربهم وتعلقهم بالمخلوقين، فأين هم من السجود بين يدي ربهم؟

في زماننا كثرت الهموم وتعقدت المشاكل، ولا سبيل لحلها وكشفها إلا بتوجه القلب إلى الله تعالى واتصاله به، والسجود هو مفتاح الاتصال الحقيقي.

الوقفة الأخيرة: ختامه مسك... همسة في آذان الساجدين.

لحظات السجود لحظات صفاء وصلة ولذة لاتساويها لذة ولا يعادلها صفاء، إنها جنة الدنيا. فهل تذوقتها أيها المسلم في سجودك؟ قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «إن في الدنيا جنة من لم يذقها، لم يذق جنة الآخرة»[1].

---

(١) المستدرك على مجموع الفتاوى (١/ ١٥٣).



فهرس المحتويات